

تصدير

ضمن مواد هذا العدد «أقصوص» بعنوان «هكذا الرجال» للأديب الشاب ابراهيم الذوكالي. وقد يصدم أسلوبها بعض القراء لا سيما الأجيال الشابة. وقد صارحتني البعض منهم بذلك من قبل صدورها على صفحات المجلة، مُبْدِئاً تعجبه من أسلوبها «المنحوت من الصخر» كما عبّر هذا المتعجب الذي استعصى عليه فهم الكثير من مفرداتها مع شعوره بسلامة اللغة وحذقه الأسلوب. والواقع أن لنا مع هذا «الأديب» قصة لا تخلو من تمييز. كنّا في بلاد الجريد نقيم أياماً قصصية جرت فعاليتها بين مدينتي توزر ونقطة فأتصل بنا شاب متحمس متشائم، يسوده الضيق، ويحوط به اليأس لما يجد من صدّ لكتاباتهِ حتى لا تنشر ولا يقرؤها الناس.

ونقصد من نشر هذا النص، أولاً إنقاذ هذا الكاتب من ضائقة نفسية حادة أو من سخط على الناشرين في تونس الذي لمسناه من حديثه الموات العديدة، مع ما لمسناه من استبعاد للإنتاج، ومحاولة إبعاده عن هذا التقوقع الموغل فيه كأنّه لا يعيش زمانه الذي سَجَل التّطور لا في التقنيات المختلفة مادية وفكرية فقط، بل كذلك في أساليب التعبير، وطرق المعالجة للمشاكل وطرح الموضوعات. وإبعاده عن العزلة القائمة التي تحول بينه وبين ما يرجو من عصره، وربط التواصل بينه وبين من يلقاهم ملتصقين به وملتصقا بهم في واقع الحياة. في البيت، والشارع والمصنع، والثّاقلة، والمأكّل والملبس، بينما هو بعيد عنهم، وعن الاتصال بهم والتعبير عمّا يجيش بباطنه بأسلوب متّصل بهم يقرؤونه فيتناقلون ولا ينفرون منه فتغيب تلك الصّلة التي ينبغي أن تكون بين المبدع والرّاقب في ابداعه.

ورغم ذلك فنحن لا ندعي أن هنالك - من القراء من يمكن ان يتلاقى ويتجاوب معه. لكن نخشى أن يكون هذا

الصَّنْف لا يطلع علي مثل هذا النوع من الانتاج في شكله ومضمونه بقطع النَّظَر عن قلبه وأسلوبه.

إنَّ الأمل في كسر الحاجز بين صاحب الانتاج ومن يودون استهلاك ذلك الانتاج والنَّفْع به هو الذي حدانا إلى ذلك.

وأخيرا لا يمكن أن نلقي هذا السَّؤال : إذا كانت مجلة «قصص» منذ أن ولدت واحتضنت صفحاتها مختلف الاتجاهات والمذاهب في الكتابة القصصية فلماذا تعجم من نوع من النشر يحسب قارؤه أنَّه يقرأ نصًّا قريب العهد من الجاحظ أو التوحيدي وابن المقفع ؟؟

صفحات المجلة مستعدة لنشر البعض من أوجه النَّظَر في هذا الباب.

قصص



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

و. سومرست موم
تعريب
محمد بلحاج صالح

أن يدخل المرء مدينة
كبيرة لأول مرة ويكون
محظوظا فيشاهد مثل
ذلك الحادث الذي جلب انتباه شيلي
عندما دخل بسيارته إلى «نابلي» ؛
فقد خرج شاب من دكان يجري
يتبعه رجل مسلح بسكين، فأدركه
وطعنه طعنة واحدة في عنقه أوداه
قتيلا وسط الطريق. كان قلب
شيلي رقيقا. فلم ير الحادث على أنه

يلتذر

رجل من جلاسكو

مجرد ميزة محلية صغيرة، بل استولى عليه الرعب والغضب.
ولكنه عندما عبر عن عواطفه إلى قسيس كالاباري (1) مسافر
معه، وكان رجلا ضخما قويا، ضحك منه ضحكا عميقا، وحاول أن
يمازحه. فقال شيلي : إنه لم يشعر في حياته مرة بالرغبة في
ضرب أحد كما شعر عندئذ.

لم أر في حياتي شيئا مثيرا مثل ذلك. ولكنني عندما ذهبت
لأول مرة إلى «الجيسيراس» (2) مررت بتجربة بدت لي غير
عادية. كانت «الجيسيراس» مدينة غير منظمة ومهملة. وصلت
اليها ليلا متأخرا قليلا، فذهبت إلى فندق متواضع على الرصيف،
له منظر جميل مطل على جبل طارق. وكان فندقا ضخما ممتدا
على طول الخليج. وكان القمر بدرا. وتوجد غرفة الاستقبال
بالبطاق الأولى. وعندما طلبت غرفة أخذتني خادمة قدرة إلى أعلى.
وكان صاحب الفندق يلعب الورق. وبدا أنه لم يبال بي. فنظر إلي

(1) قسيس كالاباري نسبة إلى منطقة ايطالية (المترجم)

(2) الجيسيراس منطقة اسبانية (المترجم)

من أعلى الى أسفل بسرعة، وأعطاني رقما بجفاء، وواصل لعبه دون أي اهتمام.

وعندما أوصلتني الخادمة الى غرفتي سألتها : ماذا بوسعها أن تقدمه إليّ من أكل.

فأجابت « كلّ ما ترغب فيه »

وعلى الرغم مما قالت فأننا أعرف جيدا أن الخيار محدود.

« ما الموجود عندك ؟ »

« يمكنك تناول البيض ولحم الخنزير ».

وقد جعلني مظهر الفندق أعتقد أنه بإمكانني الحصول على شيء آخر أحسن قليلا، ثم قادتني الخادمة إلى غرفة ضيقة ذات جدران مبيضة وسقف منخفض، وضعت فيها طاولة طويلة لتناول غداء اليوم التالي، وقد ربض رجل طويل وظهره نحو الباب على برازيرو؛ وهي صحن نحاسي مستدير مملوء بالرماد الحار يفترض فيه خطأ أن يعطي دفءا كافيا في شتاء الأندلس المعتدل. جلست الى المنضدة وانتظرت وجبة طعامي البسيطة. نظرت الى الغريب نظرة عرضية، فوجدت ينظر إليّ. ولما التقت عيناه بعيني أدار وجهه بسرعة. انتظرت بيضي. وأخيرا عندما أتت به الخادمة نظر الى أعلى مرة أخرى. وقال : « أريد أن توقظيني في الوقت المناسب حتى أسافر بأول سفينة ».

« نعم يا سيدي »

فاستنتجت من لهجته أن الانجليزية لغته الأم، كما استنتجت من تكوينه العريض القوي. ومن سماته الواضحة أنه شمالي. فالسكوتلاندي الضخم يوجد في اسبانيا أكثر من الرجل الانجليزي. فسواء أذهبت الى مناجم ريوتينثو الغنية أم إلى دكاكين جيريز لبيع النبيذ، واشبيلية أو الى ساديز فانك لا تسمع الا اللهجة الطريفة لما وراء نهر تويد (1) وستلاقي الرجال

(1) نهر تويد : نهر قرب الحدود الانجليزية السكوتلاندية

السكوتلانديين في حقول زيتون كاومونا، وفوق السكة الحديد بين
الجييسيراس وبوباديلّا، وحسّى في غابة فلهين ميريدا البعيدة.

انتهيت من الأكل وذهبت الى صحن الرماد الملتهب وكان
الشتاء قد انتصف، وقد أثلجت الرياح الباردة العابرة للخليج
دمي. وعندما قربت كرسي أبعد الرجل كرسيه. فقلت «لا تتحرك،
فهناك مجال كاف لاثنين». وأشعلت لفافة وقدمت له أخرى، وفي
اسبانيا لفافة هافانا من جبل طارق لا ترد أبدا.

فقال وهو يمد يده : «لا أمانع من أخذها»

فلاحظت موسيقية لهجة جلاسكو. ولكن الغريب لم يكن
كثير الحديث، وفشلت محاولاتي في المحادثة أمام حديثه المقتضب.
فدخنا صامتتين، وهو يبدو اضخم مما تصورت، له كتفان عريضان
وأطراف غليظة، ووجه مسفوح، وشعره قصير أشيب، وسيماته
واضحة؛ فقد كان فمه وأنفه وأذناه كبيرة وبشرته كثيرة التجاعيد.
وكانت عيناه الزرقاوان زائغتين. وهو دائم الرفع لشاربيه الكثين
الاشمطين. فكان ذلك اشارة عصبية مثيرة قليلا. وبعد حين شعرت
به ينظر الى، وقد ازدادت حدة نظراته المضايقة ممّا جعلني انظر
اليه متوقعا منه ان يغض بصره كما فعل من قبل. ففعل لحظة،
ولكنه رفعه مرة أخرى. ففحصني من تحت حاجبيه الكثيفين.

وفجأة سأل : «هل قدمت الآن من جبل طارق ؟

- «نعم»

«وانا مسافر غدا، في طريقي الى الوطن. حمدا لله.»

قال الكلمتين الاخيرتين بعنف مما جعلني ابتسم.

«الاتحب اسبانيا ؟»

«أوه ، اسبانيا ، احبها.»

«هل أنت هنا منذ مدة طويلة ؟»

«طويلة جدا، طويلة جدا.»

كان يتكلم بنوع من اللهيث. فتعجبت من العاطفة التي بدا أن اسنلتني العرضية قد اثارته فيها. فقفز وأخذ يمشي جيئة وذهابا كان يمشي في مجيئه وذهابه كالحیوان المحصور في مكان، يدفع الكرسي الذي يوجد في طريقه جانبا. ويعيد بتأوه من حين لآخر الكلمتين «طويلة جدا، طويلة جدا». فجلست ساكنا. فقد شعرت بالحرج. وحتى لا اظهر تحرجي حركت النار كي اخرج الرماد الحار الى اعلى. وفجأة توقفت، شاهقا فوقي، وكأن حركتي قد نبهته الى وجودي. ثم جلس ثقيلًا على كرسيه.

وسأل : «أتجدي غريب الاطوار ؟»

فابتسمت وقلت « ليس أكثر من أغلب الناس ».

« لا ترى في شيئا غريبا ؟»

ومال نحو الامام وهو يتكلم حتى يمكنني رؤيته جيدا.

« لا »

« قل ذلك اذا وجدت شيئا، ألا تفعل ؟»

« سأفعل ».

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لم أستطع أن أفهم ماذا يعني كل هذا. وقلت في نفسي : ربما كان ثملا. بقي دقيقتين أو ثلاثا لم يقل شيئا وأنا لم تكن عندي رغبة في قطع الصمت.

وفجأة سأل : « ما اسمك ؟». فأخبرته.

«اسمي روبرت موريسن».

«سكوتلاندي ؟».

«جلاسكو. قضيت في هذا البلد البغيض عدة سنوات. هل عندك دخان ؟».

فأعطيته كيسا فملا غليونه. وولعه من قطعة فحم.

« لا أستطيع البقاء أكثر. لقد بقيت مدة طويلة جدا ».

كانت عنده رغبة في أن يقفز من جديد ويمشي جيئة وذهابا. ولكنه قاومها. وبقي متشبثا بكرسيه. شاهدت على وجهه أثر محاولاته التي كان يقوم بها. فحكمت ان قلقه كان نتيجة إدمانه الخمر، والمدمنون يزعمونني، فقررت أن استغل أول فرصة وأنسل الى فراشي.

وواصل « لقد كنت مدير بعض مزارع الزيتون. فانا أعمل هنا لفائدة شركة جلاسكو وجنوب اسبانيا المحدودة لزيت الزيتون ».

« أو ، نعم ».

« فعندنا أسلوب جديد لتقطير الزيت، يستعمل بدقة، فالزيت الاسباني كل جزء منه جيد مثل لوكا. ونستطيع بيعه رخيصا ».

فهو في الواقع تكلم بأسلوب رجال الأعمال الجاف. فاختر كلماته بدقة السكوتلانديين، فبدأ صاحيا تماما.

« أنت تعلم أن ايسيجا في الغالب هي مركز تجارة الزيتون، وعندنا إسباني مكلف بالعمل. ولكنني وجدته قد بالغ في سرقتنا، ولذا كان علي أن أطرده لقد كنت أعيش في اشبيلية، فهي مناسبة أكثر لتسويق الزيت. وعلى أية حال، فعندما لم أجد رجلا ثقة يكون في ايسيجا ذهبت الى هناك في السنة الماضية بنفسني، أتعرفها ؟ ».

« لا »

« فالشركة لها مزرعة كبيرة تبعد ميلين عن المدينة. خارج قرية سان لورينزو بالضبط، وفيها دار جميلة فوق ربوة، يعجبك منظرها عندما تراها، كلها بيضاء، وعشش فوق السقف زوج من طير اللقلق لم يسكنها أحد، وظننت أن السكن فيها سيريحني من الايجار بالمدينة ».

فقلت : لا شك أنك بدأت تشعر بالوحدة

« لقد شعرت بها »

دخن روبرت مريضاً مدة دقيقة أو اثنتين صامتاً، فتساءلت مع نفسي أتوجد فائدة لي مما كان يقوله. ونظرت إلى ساعتني.

قال بحدّة : «أمسرع أنت ؟»

« لا أبداً، ولكن يبدو أن الوقت أصبح متأخراً ».

«حسن، ما الفائدة من ذلك ؟»

فرجعت وقلت : «يبدو أنك لم تر كثيراً من الناس»

« لا ، ليس كثيراً. سكنت هناك مع رجل عجوز وزوجته كانا يخدمانني، وأحياناً أذهب الى القرية لألعب الورق مع الصيدلي فيرناندز، ورجل أو اثنين آخرين يأتيان الى صيدليته، وكنت أصطاد وأركب الخيل...»

« لا تبدو لي هذه الحياة بغيضة ».

« بقيت هناك مدة سنتين حتى الربيع الماضي. أقسم بالله إننا لم نر حراً كما رأيناه في ماي. لا أحد يستطيع فعل شيء. فالعمال لا يعملون شيئاً سوى أن ينتقلوا من هنا الى هناك ويناموا في الظل. الغنم ماتت، وبعض الحيوانات جنت. وحتى الثيران لم تستطع العمل فوقفت وظهورها محدودة وهي تلهث. كانت الشمس اللعينة تصفح، وكان الوهج مربعاً، فتشعر بعينيك تكادان تخرجان من رأسك. الأرض تشققت وتفتت، واحترق المحصول. وفسد الزيتون وصار علفاً. كانت باختصار جهنم. فلم يستطع المرء الحصول على إغفاءة واحدة. ذهبت من غرفة الى أخرى أحاول الحصول على نفس من الهواء. بالطبع احتفظت بالشبابيك مغلقة وصببت الماء على الأرض، ولكن ذلك لم يجد نفعا. كانت الليالي حارة كالأيام، فكان المرء يعيش داخل فرن.

وأخيراً ظننت أنني تحصلت على فراش جعل لي أسفل في الجانب الشمالي من الدار في غرفة لم تستعمل من قبل، لأنها تكون في الطقس العادي شديدة الرطوبة. وكنت أظن أنني سأنام

هناك بضعة ساعات تحت أي ظرف. وعلى أية حال فهو ظن كان يستحق المحاولة. ولكنه لم يكن ذا فائدة، فأخفق. فقامت لأن فراشي كان حارا جدا فلم استطع احتماله. وقفت وفتحت الابواب المؤدية الى الشرفة وخرجت. كانت الليلة متألقة. والبدر منيرا جدا، أقسم إنك تستطيع قراءة كتاب على نوره. هل قلت لك إن الدار كانت فوق ربوة ؟ اتكأت على الحاجز ونظرت الى أشجار الزيتون كانت مثل البحر. وربما ذلك الذي جعلني أفكر في الوطن. ففكرت في النسيم البارد، وفي شجر التنوب (1)، وفي جلبة شوارع جلاسكو، صدق أو لا تصدق أنني كدت أشمها، وأشم البحر. والله، كنت اعطي كل جنه املكه في العالم مقابل ساعة واحدة من ذلك الهواء.

يقولون إن الطقس في جلاسكو رديء. لا تصدق ذلك، أحب المطر، والسماء الرمادية، والبحر الأصفر، والأمواج. نسيت أنني كنت باسبانيا، في وسط بلاد الزيتون، ففتحت فمي وسحبت نفسا طويلا كما لو كنت أتنفس ضباب البحر.

« ثم سمعت فجأة صوتا، كان صوت رجل، ليس عاليا، بل منخفضا. يبدو كأنه كان يزحف خلال الصمت مثل = حسن، لا أدري كيف كان. فاجأني. لم أستطع أن أفكر من هو الذي كان أسفل هناك وسط الزيتون في تلك الساعة. كانت الساعة بعد منتصف الليل. كانت ضحكة رجل. نوع غريب من الضحك. تستطيع تسميتها ضحكة خفيفة. تبدو أنها تزحف متقطعة صاعدة الربوة.

نظر الي موريسن ليرى كيف أتقبل كلمات غريبة استعملها للتعبير عن إثارة لا يعلم كيف يصفها.

« أعني، أنها تبدو مثل اندفاعات صغيرة متقطعة مروعة، شيء مثل إفراغ الحجارة من سطل. فملت نحو الامام ونظرت. فبدا نور البدر مثل نور النهار تقريبا. ولكنني لم أر شيئا. توقف الصوت. الا أنني بقيت أنظر الى المكان الذي انطلق منه

(1) التنوب : جنس شجر من فصيلة الصنوبريات (الترجم)

لعل هناك من يتحرك. وبعد لحظة عاد من جديد، ولكن بصوت أعلى. لا يمكنك تسميته ضحكا خفيفا الآن، فقد كان ضحكا عميقا ومرتفعاً. شق عباب الليل. فتعجبت لماذا لم يوقظ خادمي. وبدأ مثل رغاء سكران. فصحت : « من هناك ؟ ».

« وكل ما تحصلت عليه من جواب هو ضحكة عالية، ويمكنني القول إنني بدأت أشعر بالغضب، ترددت في الذهاب إلى أسفل لأرى ماذا هناك. فأنا لن أسمح لسكير خنزير بأحداث مثل تلك الضوضاء في مكاني في منتصف الليل. وبعدئذ وفجأة حدثت صرخة، أقسم بالله إنني خفت. ثم صياح. وضحك الرجل بصوت جهير، ولكن صياحه كان حادا مثل صياح خنزير قطعت رقبتة.

فصحت : « يا الهي ! »

وقفزت من فوق الحاجز وركضت إلى أسفل حيث الصوت، فقد اعتقدت أن رجلا كان قد هوجم، كان هناك صمت. ثم صرخة حادة. بعد ذلك نشيج وعويل. أقول لك كيف كانت، كانت مثل صوت إنسان يصارع الموت. كان هناك عويل طويل ثم لا شيء. صمت وركضت من هنا إلى هناك، فلم أستطع إيجاد أحد. وأخيرا صعدت الرابطة مرة أخرى ورجعت إلى غرفتي <http://www.archive.org>

« ويمكنك أن تتصور كم نمت تلك الليلة. وحالما بزغ نور الفجر نظرت من نافذة غرفتي إلى مصدر الرغاء ففوجئت برؤية دار بيضاء صغيرة بدت مثل الوادي وسط الزيتون. فالأرض التي على ذلك الجانب لا تعود إلينا فلم أدخلها أبدا. ولم أذهب أبدا إلى ذلك الجزء من الدار، ولذلك لم أر الدار من قبل. وسألت جوزي من يسكن هناك فقال لي : « إن رجلا مجنوناً كان قد سكنها مع أخيه وخادم له. »

فقلت : « أوه ، هل كان ذلك هو السبب ؟ فهو ليس جارا طيبا . »

مال السكوتلاندي إلى الأمام وأمسكني من معصمي. وقرب وجهه فجأة من وجهي، عيناه جاحظتان من الرعب.

وهمس : « المجنون مات منذ عشرين سنة ».

وأطلق معصمي واتكأ الى الخلف فوق كرسيه وهو يلهث.

« نزلت الى الدار وطففت حولها. كانت النوافذ مغلقة ومزججة. والباب موصودا. قرعت الباب. وحركت المقبض وقرعت الجرس. فسمعته يرن ولكن لم يأت أحد. والدار تتكون من طابقين. فنظرت إلى أعلى فوجدت المصاريع قد أغلقت بإحكام، ولا يوجد أي أثر للحياة في أي مكان ».

فسألت : « كيف كانت حالة الدار ؟ »

« أوه ، كانت رديئة. فالجير تساقط من الجدران. ولم يبق أي أثر للدهن على الباب أو مصاريع النوافذ. وعلى الأرض يوجد قرميد سقط من السقف كأن عاصفة قد أسقطته.

فقلت : « غريب ».

« ذهبت الى صديقي الصيدلي فيرناندز ، فقال ما قاله لي جوزي.

فسألت عن الرجل المجنون فقال فيرناندز لم يره أحد أبدا. لقد كان فقدان للوعي عاديا. ولكنه من حين لآخر تأخذه نوبة عصبية فيسمع من مكان بعيد يضحك عنيفا ثم يبكي. فكان يخيف الناس. ومات في إحدى تلك النوبات. وفي الحال غادر المكان المشرفان عليه، ومن يومها لم يتشجع أحد على أن يسكن الدار. « لم أخبر فيرناندز بما سمعت. لأنني ظننت أنه لن يزيد على أن يضحك مني. وبقيت ساهرا أراقب. ولكن لم يحدث شيء، لا صوت. انتظرت حتى قرب الفجر ثم ذهبت الى الفراش ».

« ولم تسمع أي شيء بعد ذلك أبدا ».

« مدة شهر. تواصل الجفاف وذهبت لأنام في المخزن في الخلف. وفي إحدى الليالي كنت في نوم عميق وإذا بي أسمع شيئا بدا كأنه حدث لي، لا أعرف كيف أصفه، كان شعورا غريبا كأن أحدهم همزني همزا خفيفا. لينذرني، وفجأة كنت في كامل

الصحو. بقيت مستلقيا في فراشي ثم، وبالطريقة السابقة نفسها، سمعت قرقرة طويلة ومنخفضة، مثل رجل يتمتع بنكتة قديمة. كانت قادمة من أسفل الوادي، ثم علت. كانت خوارا عظيما من الضحك. فقفزت الى خارج الفراش وذهبت الى النافذة. وبدأت ساقاي ترتجفان. كان الوقوف هناك، والاستماع الى الضحك العالي المتصاعد وسط الليل مرعبا. ثم حدث توقف، فصيحة ألم حادة، فنشيج مروع. لم تبد أنها إنسانية. أعني. أنك يمكن أن تحسب أن هناك حيوانا يعذب. ولا أخرج من أن أقول لك إنني قد جمدت في مكاني من الخوف. ولم أستطع التحرك حتى لو أردت. وبعد برهة توقفت الأصوات، لم تتوقف فجأة، وانما أخذت تتناقض شيئا فشيئا. فأصغيت، ولكنني لم أسمع شيئا. فرجعت بهدوء، الى فراشي وأخفيت وجهي.

وعندئذ تذكرت ما قاله لي فيرناندز أن نوبات المجنون تأتي في فترات متقطعة. ويكون في بقية الوقت هادئا تماما. قال فيرناندز : فقدان شعور. فتساءلت : إذا كانت نوبات الجنون تأتي بانتظام، وقدرك كم كان بين الثوبتين اللتين سمعتهما : ثمانية وعشرون يوما. فليس من الصعوبة أن أصل الى النتيجة، فمن الواضح أن اكتمال القمر ليصبح بدرا هو الذي أثاره. والحقيقة هي أنني رجل لا يخاف فقررت الوصول الى نهاية الطريق، فنظرت في اليومية ما هو اليوم الذي سيكون فيه القمر التالي بدرا، وفي تلك الليلة لم أذهب الى الفراش. فنظفت مسدسي وحشوته، وأعددت مصباحا وجلست على حاجز داري انتظر. شعرت بالطمأنينة، وفي الحقيقة أنني كنت راضيا عن نفسي لأنني لم أشعر بالخوف. هبّ قليل من الريح فصفر خلال السقف، وخشخش فوق أوراق شجر الزيتون كما تضرب أمواج البحر حصي الشاطئ. وسطع البدر على جدران الدار البيضاء في المنخفض فشعرت بالابتهاج.

«وأخيرا سمعت صوتا خافتا، الصوت الذي أعرفه، فكدت أضحك. كنت على صواب، فقد أصبح القمر بدرا، وأتت النوبات منتظمة كدقات الساعة. وذلك كله في صالحي. فقفزت من فوق

الجدار الى بستان الزيتون وجريت نحو الدار. وكلما اقتربت منها ارتفع الضحك. ولما وصلت إلى الدار نظرت إلى أعلى. فلم يوجد نور في أي مكان. فوضعت أذني على الباب واستمعت. فسمعت الرجل المجنون يضحك بكل بساطة ضحكا هستيريا. فطرقت الباب بقبضتي وضغطت على الجرس. فكان صوته قد أعجبه. فضحك بعنف، فطرقت من جديد، طرقا أقوى فأقوى، وكلما ازدادت طرقا ازداد ضحكه ثم صحت بأعلى صوتي :

« افتح الباب اللعين، وإلا كسرتة ».

رجعت الى الخلف وركلت القفل بكل قوتي. وقذفت الباب بوزن جسمي كله. ففقرز. ثم وضعت كل قوتي عليه فانفتح الملعون.

« فاستخرجت المسدس من جيبتي، ورفعت مصباحي بيدي الأخرى. فظهرت الضحكة أقوى الآن لأن الباب أصبح مفتوحا. فدخلت فكد يغشى علي من الرائحة الكريهة. تصور النوافذ التي لم تفتح مدة عشرين سنة. وكان الخوار كافيا ليوظ الموتى، ولكنني بقيت لحظة لا أعرف من أين يأتي الصوت. وبدا كأن الجدران تعكسه إلى الامام وإلى الخلف» قد دخلت بابا بجانبني فانفتح ودخلت غرفة. كانت خالية وبيضاء لا توجد بها قطعة أثاث واحدة. كان الصوت عاليا فتابعته. وذهبت الى غرفة أخرى، ولكن لم يكن هناك شيء. وفتحت بابا فوجدت نفسي أمام سلم. وكان الرجل المجنون يضحك فوق رأسي مباشرة. فصعدت بحذر، فلم أكن لأخاطر بنفسي، وفي نهاية السلم وجدت ممرا. فاتبعته، أضيء أمامي بمصباحي، وفي النهاية وجدت غرفة. وقفت، كان هناك. ولا يفصلني عن الصوت سوى باب رقيق.

« كان سماعه مزعجا. فارتجفت، ولعنت نفسي لأنني بدأت أرتعش. لم يكن مثل الانسان مطلقا. أقسم إنني كدت أركض هاربا. وكان علي أن أضغط أسناني لأجبر نفسي على البقاء. ولكنني بكل بساطة لم أجد الشجاعة لإدارة مقبض الباب. ثم توقفت الضحكة، توقفت كأن سكيننا قد قطعتهما، وسمعت هسهسة ألم، لم أسمعها من قبل، كانت منخفضة جدا من الصعب وصولها الى مكاني، ثم شهقة.

سمعت الرجل يتكلم بالاسبانية : « آه أنتم تقتلونني ، خذها بعيدا، رباہ ساعدني».

« صرخ. كان الوحشان يعذبانہ، ففتحت الباب واندفعت داخل الغرفة. ففتح التيار مصراع شباك فدخل نور البدر ساطعا بقوة حتى غلب نور مصباحي. وسمعت أنين الرجل المسكين بأذني قربي كما أسمعك أنت الآن تتكلم بوضوح. كان مزعجا. صياح ونشيج، وشهيق مرعب لا أظن أحدا يستطيع أن يبقى حيا بعد سماعه ذلك. كان في النزاع الأخير. أقول لك إنني سمعت صيحات المتقلعة المثيرة مباشرة في أذني، والغرفة كانت فارغة ».

عاد روبرت موريس إلى الخلف وغاص في كرسيه. فبدأ منظر ذلك الرجل الضخم القوي الغريب مثل منظر المثل الخشبي داخل مرسوم تشعر بأنك لو دفعته لسقط كومة على الأرض.

فسألت : « ثم ماذا ؟ »

فأخرج من جيبه منديلا يبدو وسخا ومسح به جبهته « شعرت بأنني لا أرغب كثيرا في النوم في تلك الغرفة في الجانب الشمالي، سواء ارتفعت درجة الحرارة أو لا ولذا رجعت الى مكاني الخاص. أربعة أسابيع أخرى بالضبط، حوالي الساعة الثانية صباحا. أيقظني ضحك الرجل المجنون. يكاد يكون قرب مرفقي. وبصرامة فانني كدت أفقد أعصابي عندئذ، ولذا، فعندما قاربت النوبة التالية للمسكين، وكاد القمر التالي يصير بدرا، طلبت من فيرناندز أن يأتي ويقضي الليل معي. لم أقل له شيئا. وأبقيته مستيقظا يلعب الورق الى الساعة الثانية صباحا، ثم سمعت الصوت مرة أخرى. فسألته اذا كان قد سمع شيئا فقال : « لا شيء » فقلت : « بعضهم يضحك » فقال : « أنت رجل ثمل » وبدأ يضحك أيضا. فكان ذلك كثيرا جدا. فصحت : « اسكت أيها الأبله » فارتفعت الضحكة أكثر فأكثر، فصرخت. وحاولت إسكاتها بوضعي يدي فوق أذني، ولكن ذلك لم يقد شيئا. فسمعت وسمعت صراخ الألم. فظن فيرناندز أنني مجنون. ولم يستطيع قول ذلك لأنه يعلم أنني سوف أقتله. فقال : إنه سيذهب الى الفراش. وفي الصباح وجدته قد غادر خلصة وبدأ من فراشه أنه لم يلم فيه، فقد ذهب عندما غادرني.

وبعد ذلك لم أستطع البقاء في إيسيجا. فوضعت مديرا هناك ورجعت إلى إشبيلية. فشعرت بأنني أكثر أمنا فيها. ولكن كلما اقترب الوقت بدأت أشعر بالخوف. وبالطبع حاولت إقناع نفسي بآلا أكون مغفلا ملعونا، ولكن لم أستطع تحمل ذلك. والحقيقة أنني كنت خائفا من أن الأصوات قد تتبعني، وأنا أعلم أنني إذا سمعتها في إشبيلية فسأظل أسمعها طول حياتي. فانا شجاع مثل أي رجل، ولكن قاتل الله ذلك كله فهناك حدود لكل شيء. ويصعب على الانسان تحمل كل ذلك. وأنا أعلم أنني سأصبح مجنوننا تماما، فأصبحت في حالة بدأت فيها أعاقر الخمر، فالترب كان مزعجا، وكنت أستلقي مستيقظا أعد الأيام. وأخيرا أعلم أن الضحكة ستقدم. وقدمت، سمعت تلك الأصوات في إشبيلية. ستون ميلا بعيدا عن إيسيجا.

« لم أعرف ماذا أقول. فبقيت صامتا مدة من الزمن. »

وسألت : « متى سمعت الأصوات آخر مرة ؟ »

« منذ أربعة أسابيع. »

فنظرت إلى أعلى بسرعة.

« ماذا تعني بذلك ؟ القمر ليس يدور الليلة. »

فنظر إلي نظرة سوداء غاضبة. وفتح فمه ليتكلم ثم توقف كأنه لم يستطع بحيث يمكنك القول : إن حباله الصوتية قد شلت. وأخيرا أجاب بصوت منخفض أجش غريب :

« نعم، وهو كذلك »

ونظر إلي، وبدأ كأن عينيه الزرقاوين الشاحبتين تشعان جمرة فلم أر في حياتي وجه رجل عليه مثل ذلك الرعب، فقام مسرعا ودلف إلى خارج الغرفة مغلقا الباب خلفه بعنف.

ولا بد من الاعتراف بأنني أنا نفسي لم أنم نوما هائنا في تلك الليلة.

تعريب : محمد بلحاج صالح

ها

هو ذا نضال ينقلب أهيلا
من محلّ عمله كالآ مما
قدّمت يده.. ولج ملجأه
يخطو خطى وثيدة واستلقى على
حشبة خلقة عراها البلى... طفق
يتفرّسها كأنه يضطجع عليها أوّل
مرة، رنا إليها بمقلة ملؤها الأسف
والأسى... وكأنما بإيعاز منها صرف
بصره عنها فراح يقلب طرفه في
أرجاء ملجئه خاسئا وهو حسير...

هكذا الرجال

وما كان ليصدف عن الإمعان في الأثاث بل في المأوى وما حوى
حتى يقطّب جبينه طورا أو يشخص بصره مهملعا مقنعا رأسه
حيناً أو يبتسم بسمّة مزجت هزوا حيناً آخر... وهلمّ جرّاً...

وما إن فرغ من إجالة طرفه حتّى ألقى نفسه في يَمّ لحي من
الذكرى... إنه يرى نفسه وقد ووري الثرى فلا يرى سوى رأسه
في بيداء مقفرة وقد ناهز الحول الخامس. وما فعل به والده ذلك
إلا لفقدان الماء بالفلاة ولئلا يقضى النصبى الصدى نحبّه فما
خولط وما زاغ بصره إذ بصر بجمل كقطعة جبل مزيدا مرعدا
فتبّت جنانه حيث لا يثبت جنان الكميّ الهمام... وما أريح حتّى
أزيع عنه الثرى إثر العثور على ماء أجاج...

إن قسم والده ألا تضرم نار وألا يوضع مرجل على الأثافي
ثلاثة أيام لا يزال صدهاء يبلغ مسعاه فيستاء أيما استياء...

حقاً إن أباه كان فظاً غليظ القلب جافيا، وإلا فبأيّ مسوِّغ
يحرم أهله النار والنور لأتفه الذرائع وأقلّ الأسباب وجاهة
فيتتركهم في حيصّ بيبصّ أجوافهم غرثى تكتنفهم ظلمات بعضها
فوق بعض يقاسمون شظف العيش...

ولئلا تظلّ أمّ تضال وأخواته في خصاصة أبي إلا أن يقوم
مقام أبيه المهمل ولم يأت من سنّه أحد عشر حولا، فكان يجوب
الأحياء أحيانا بحثا عن علب من الحديد فارغة فيجعل منها أقمعا
ومدى ... وكان يلج الديار غير مستأذن إذ لا تجد القاطنات في
أنفسهن حرجا إن قابلنه في بيوت بعولتهن أو آبائهن لحدائث سنّه.
قام تضال قاطعا الذكرى يجوب مأواه جيئة وذهابا وكان حرّ
الصيف كحدّ السيف فانبعثت من فيه عبارات الضجر والسأم :
« أفّ لذا المأوى وسحقا لما حوى... ».

طرق جاره الباب طرقا خفيفا ما كان ليصيح له من كان
منفعلا... زاد الطرق حدة...

- من الطارق ؟

- خليلك

- أيهم ؟ فهم كثر ولكن غثاء كغثاء السيل !

- ألم تذكرني ؟ أنا...

- خليلي، أبا خليل لج البيت فورا

وما إن وطئت قدماه السقيفة حتى ارتمت تضال في حضنه
معتذرا :
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- لن أخضع، ولجبروت الدهر الغشوم لن أركع.

- أخي... أخي... ماذا دهاك ؟

- أه... أه... إن صراعي مع هذي الحياة مستمرّ مرّ مذاقه كقطع

المنظل، فمن لدن طفولتي حتى كهولتي وأنا في كدح دؤوب:

لأستهلن الصعب أو أدرك المني

فما أنقادت الأمال إلا لصابر

- هديت إلى الرشاد والسداد... ما ألغيت لينة عريكتك، لا

تهن أخي لا تهن. فلم يأتك من سنك ستون كمل. فانت أقمس لا يجد

التقاعس إليه سبيلا. فأربأ بنفسك عن الهواجس المويقة...

- لا توجسن خيفة، فما أنا بالمرء الجزوع الهلوع. واعلم - لا

عدميت علما - أنني أمرؤ كالحديد كلما قاسى نارا زال خبثه وصدؤه

فكان أشدّ صلابة، فأنفي به أنف أن أبيت على هيم.

- ذاك ديدنك ولا مريّة.

- ألم تعلم أنّي أمرؤ ترعرع أمياً لم تتح له فرص النهل من العلم فأورث الخصص... وما أنا ذا أخطُ بيميناي المقال الذي يلاقي الاستحسان لا الاستهجان فأنا أثقّف نفسي فأكسبها علماً وصلابة كما أتقن أود الحديد... وكنت أرى طرق المطرقة طوارق... وأما السندان فهو الأرض التي كتب عليّ أن أضرب فيها وأحيا. وما الحديد إلّا الذي بين يديك لحماً ودماً، أفني اليوم من لدن الإشراف إلى أن توارى بالحجاب وأنا أروم الإتقان والإخلاص فيما أنيط بعهدتي بأذلا ما استطعت جهدي. وما كنت ذا شطط، وإن يبغي أحدهم حظيطة أسقطت ممّا تخلّد في ذمّته كفلاً، وإن كان قليل ذات اليد أنظرته وما أنذرته وإن تطاول الزمن وأتى حين من الدهر.

- بورك فيك، فنعم المرء أنت.

- أبا خليل، إنّ ما يقلقني ويورقني تفصّي خلق كثر من الاضطلاع بما عهد إليهم على الوجه الأكمل فأني يصرفون ؟
- في الانصراف أستسمحك بعدما شئتُ مسمعي ببيانك البالغ الحكيم.

- لا جناح عليك، وافقتك السلامة: <http://Arc>

أوصد نضال باب ملجئه وهو يسأل دون أن ينبس ببنت شفة :

- ماذا على أحدهم لو تغانى في عمله إذن للمس متعة وأرضى ضميره وحريفه ولأضحى أحد عوامل البناء لا معاول الهدم في قومه ؟!

ابراهيم الدوكالي

لاحظ

عليها تغييرا غريبا لم يآلفه من قبل، التبرم والنفور من مواجهته بنظراتها. كانت هذه أول مرة يجتاحه فيها إحساس بأنها تخفي عنه أمرا تصر على كتمانها، وتحاول إيهامه بسقم ألم بها، واستبعد بعض الخواطر بشيء من تأنيب النفس، فهو عليم بمعدن زوجته بعد زيجة دامت أكثر من خمسة عشر

تذكر

عاما، لم يلاحظ خلالها منها أية بادرة شذوثة، بل كانت تسعى الى تجنب ما يغضبها، كانت الاسباب، ولا تتصرف أبدا من منطلق العناد حتى ولو كانت نفسها تميل إليه.

تاه في دوامة من الحيرة، جعلته يفقد تركيزه، فرقست صور التلفاز وارتعشت أحرف الصحيفة، وضائق به الغرف وهو يلجها الواحدة تلو الأخرى دون هدف.

لم يعرف كيف توقف فجأة أمامها، وخطر له ما زاد في ارتكابه، لم يتجرأ مرة في حياته على هتك أسرار حافظة أدوات زينتها، وكل ما يتعلق بحاجياتها الخاصة، لم يكن ذلك لثقة عمياء في وفائها ولكن لعادة وطبع فيه، لم يخطر بباله أبدا الخروج عنهما.

وعبثا حاول الابتعاد عنها، وكأنما شد إلى مكانها بقوة مغناطيسية، ووجد صعوبة كبيرة لاصدار القرار، بينما تتأقلت ذراعه في الامتداد، وارتعشت يده وكأنما كان مقدما على جرم لأول مرة، أرهف السمع وعيناه على مدخل الغرفة وكل شيء فيه

ينبض هلعاً، ليس فقط من عملية فتح الحافظة لكن ما قد تخفيه من مفاجآت لم تخطر بباله، قد تقلب حياته رأساً على عقب.

كان وهو يمسك بالحافظة يمتني النفس بعدم اكتشاف ما يعكر صفاء العائلة، وهي تصدر صوتاً خاله سمع من كافة سكان الحي، أبصر علبة السجائر «الروايال» تتصدر الجوف منقوصة سيجارتان وقد التصقت بها علبة كبريت.

أحس بدوار وحُمى غليان، وتاه في تخمينات مشوشة متسارعة إلى حد الصداع، بينما كان يمتني من كل جوارحه أن تتبدد شكوكه بإجابة مقنعة.

لم يدخل طيلة حياته لا لمعرفة مسبقة بمضار التدخين ولكن لشعوره بالاختناق كلما نفث أحدهم في وجهه دخان سيجارته. وهكذا كانت البداية، أما موقفه منه بالنسبة للمرأة وخاصة زوجته فإنما لاقتناع لا يعرف كيف عتش في رأسه بالافرق لديه بين المرأة المدخنة والمرأة العاهرة، حيث يعتبر المدخنة خارجة عن العرف والعادة والمألوف في محاسنها لبعض تصرفات العاهرة، وله قولة يرددتها عند التطرق إلى هذه الظاهرة مع بعض معارفه بأنه لو طلب رأس الأنثى سيجارة فسيطلب لا محالة الفسوق.

انتقل من جديد بين الغرف دون هدف متهرباً من مواجهتها، كان أهون عليه لو تصر على الإنكار ولو كانت فعلاً تتعاطى التدخين محافظة على صفاء صورتها، وبرز له فجأة سؤال بدد بعضاً من مخاوفه... لو كانت فعلاً تدخن فلماذا لم يشتم منها ولو مرة واحدة رائحة التبغ؟ ولما لم يسعف بالإجابة، ألح عليه خاطر ثان... لو اعترفت بما يكره فعماذا يكون تصرفه...؟ وأحس بانقباض وتمنى أن تكون الخاتمة كما يشتهي.

تجنب وهو يدخل غرفة الجلوس نظراتها موهماً إيهاها بالفرحة عما يبثه التلفاز من صور، بينما كان نهبا لهواجس ومخاوف حالت دونه واستقبال هذه الصور. وقال لها بنبرة حازمة بعد أن جمع شتات أفكاره.

- بحافظة أدوات زينتك علبة سجائر وعلبة كبريت؟!

وساد صمت ثقيل أفزعته وضاعف من خوفه وصرخ فيها يوه
البكاء :

- صمتك له معنى واحد !!

ولاحظ منها انكماشاً في مجلسها، وغير قادرة على رفع
بصرها الى محياه، واضطربت ملامحها، ولما أطال التحديق فيها
أدارت وجهها للنافذة، وهنا لاحقها بنفس السؤال :

- قللي : إنك تتعاطين التدخين قللي!!

وقالت بعد جهد وضيق :

- ليتك عرفت هذا من قبل وأرحتني ..

وجن جنون الزوج، وهو يمسك ثيابه بعنف، وقد تحقق أنه
أصيب بخيبة أمل زعزعت كيانه كله، وتشرف على تحطيمه،
ووسوست له هواتف :

« إن الفعل شذوذ وما أدراك أنها لم تمثل الشذوذ في أكمل
معانيه وصوره ».

وبرزت قولته الشهيرة :
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

« لا فرق بين المرأة المدخنة والمرأة العاهرة »

وتلتها قولته الثانية :

« لو طلب رأس الأنثى سيجارة فسيطلب لا محالة الفسوق »

ولعلها تفتنت الى ما صار عليه حاله من اضطراب شديد،
وهي العليمة بأحاسيسه وطينته ومواقفه التي لم تززعها الأيام،
وما عهدت فيه نقض أي مبدإ آمن به، وخوفاً من أن تفتك به
الصدمة، تعاملت على نفسها وانتصبت واقفة، وقد أزمعت أن
تنفض عن نفسها الانكماش الذي لم يعد يجدي نفعا بعد أن أطلقت
عليها متاهات الضياع، ورأت أن تتسلح بمثلها وتدافع عن ذاتها
وبراءتها دون أن تزيد من لوعته، بل عليها تهدئة روعه، وفجأة

أحبست بعجزها عن تحقيق هذه المعادلة فعادت إلى مكانها.

وانتقل الى الصالون وانكمش في مجلسه ماسكا برأسه وقد دامعه صداع يكاد يخرق جمجمته بينما الارتعاش قد تمسك به وهو يكبّت غضبه.

التحقت وقالت بعد جهد :

- ما الذي تفعله بنفسك

ولما حافظ على الصمت وجدت شجاعة أكثر لأخذ زمام الحوار بعد أن انفلت من زوجها، وهي عادة تتكرر كلما وصل غضبه بدروته، وقالت وهي تكاد تذوب رقة وفي مسكنة :

- أرجوك اعقل

قالتها وهي تجد صعوبة كبيرة لانتقاء ألفاظ مهدنة. ولما تغير حاله أردفت من جديد :

- ليتك تفهمني... كان فزعي الأكبر طيلة خمسة عشر عاما.

وانفجر الزوج في وجهها وهو في وضعة الأول قائلا :

- ليتك مت... أو ليتني مت قبل أن أعرف حقيقتك

وقالت وهي تأخذ مجلسها حذوه في وضع غير مريح تنشده إلهاما يخرجها من هذا المأزق بأقل ضرر :

- لم تكن تسمح لي بمصارحتك.

- أي صراحة تعنين وأنت تعلمين موقعي من الأنثى المدخنة.

- لا تتصور أنني سعيدة به... كنت أتعذب مع كل سيجارة.

- هذه خيانة

- أرجوك لا تقل هذه الكلمة وأنت تعلم من أنا

- أنا لا أعلم شيئا.. فقدت ثقتي في كل شيء

لحظتها أحست كأن الأرض تعيد من تحتها، فرغم شعورها بالذنب نحو زوجها على الأقل فقد كانت متمسكة بالفضيلة تمسكها بالحياة لا من خوف بل من اقتناع بأنها كائن له رسالة محددة وليس بالوعة لكل من هب ودب، وبعد أن مست في صميم كيائها أحست بضيق ففصلت الانسحاب الى غرفة النوم حيث أجهشت بالبكاء وهي لا تعرف كيف تتصرف في هذا الموقف الصعب بعد سحب زوجها ثقته منها.

انزاح عنه غم أول ما صدع بسحب ثقته منها، لكن صدى الصدع عاد اليه ليزيد في حزنه للعسف الذي أبداه نحوها مخافة انعكاسات تزيد الطين بلة، لكن موقفه من التدخين وخاصة بالنسبة للمرأة كان ينسف كل محاولة للفهم والتعقل، لذلك فكلمها برزت مبررات أتى عليها موقفه هذا قبل اكتمالها.

أصغى الى نحيبها ممزق المشاعر، فتارة يزداد حنقا وطورا يرق قلبه، وهو بين هذا المد والجزر يزداد انكماشاً في تكور الذي داهمه خطب لا طاقة له على تفاديه.

خطر لها وهي تكفكف دمعها العود حذوه لعلها تتوصل الى إنهاء هذا الصراع كما تشتهي، وهي تأخذ مجلساً قريبه، تعمدت الالتصاق به بينما العبارات تزيغ منها وتتمرد في خضم اضطرابها، ولما طال بها الصمت قالت بصعوبة :

- ليتك تصغي إلي دون ثورة... فأنا كما عهدت الا ما اكتشفته الآن... صدقني انك لا تعرف ما الذي عانيته وأنا طفلة... لا تقس حالك بي... من خمسة عشر عاماً وأنت لا تترك لي فرصة مصارحتك بالتشدد المفرط في موقفك... أنا لا أعيب فيك كرهك للمدخنات ولكن ما أعيبه عليك حشر هذه المرأة ضمن زمرة البغايا... هذه الاتهامات فظيعة على الأقل بالنسبة لي.

وخوفاً من أن تواصل كلامها بنفس الوتيرة في ايجاد أعذار قد يضعف أمامها قال وهو يرمقها بنظرات نارية :

- ذلك لأنني ابن الريف لم أتبلد بعد لأسمح لزوجتي

بالتدخين، ولا أظن حدوثه يوما ما ما دمت حيا.

- لا يمكن مقارنة عادات القرية بطبيعة المدينة.

- المدينة.. المدينة، اياك أن تتعادي في مثل هذا الهذر حتى لا أكتشف فيك المزيد من العيوب بعد خمسة عشر عاما من العماء.

- أرجوك.. إنك تقتلني بهذا الكلام ولا تترك لي الفرصة للدفاع عن نفسي.

وقاطعها صارخا :

- أي دفاع تعنين والخطيئة ثابتة !

- ذلك لأنك لا تسمع الا صوتك ولا تسيد الا منطقك مع ايمانك بأن الحقيقة ليست واحدة.

- شيء عظيم، تحاولين تشكيكي في كل شيء بهذه النسبية ولا أستبعد أن تشككيني في ديني.

- لا تذهب بعيدا، فما قصرت مما ذكرت، وإنما هذه العادات التي تظلم الكثيرين.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- عادات، عادات، عادات، بالمحافظة على هذه العادات يا امرأة الظهور بما يسر الناس وبالخروج عنها لا حصاد غير التفور واللعن.

- أنا لا أتشيع لهذا النوع من الشذوذ ولكن أحيانا الظروف تكون أقوى منا وتفرض علينا ما لا نشتيه.

- هراء في هراء... أبدا لن أغفر لك هذه الخيانة.

- أرجوك لا تعد الى هذه الكلمة

- هذه العبارة هي التي أراها مناسبة والشفافية لغيلبي.

وركننت الى الصمت لحظات تستجمع شتات أفكارها تاركة له فرصة الهدوء بعد ثورته الأخيرة.

ولما بدا لها أن أنفاسه قد استكانت قالت :

- لا تقل إنني راضية عن نفسي ولا سعيدة بما أفعل... كان عذابا متواصلا وخوفا مرعبا.

وغصت بعباراتها وعجزت عن مواصلة الحوار وأردفت بعد برهة :

- أنت لا تعرف وضعي في عائلتي قبل خطبتك لي، ولا شك أنك عاينت بعض الحالات أب سكير لا يهدأ الا بعد أن يحطم كل ما يقع بين يديه وأم متفطرسة ظالمة وظهوري بالمدرسة بثياب بالية، لأبقى طاوية البطن كامل اليوم. ولازمت الصمت لحظة وقد غصت بدموعها ولما استكانت أردفت :

- كنت أشاهد أبي وهو يغلي خمرًا ويحترق تبغًا، كان نهما وهو في أشد انفعالات غضبه الى استهلاك السجائر، وخيل إلي، وأنا في تلك السن والعذاب، أن هذه السجائر قادرة على امتصاص معاناتي وتريحني بعض الشيء كما تفعل مع أبي.. فكنت ألتقط خفية بقايا سجائره وأهرع بها الى بيت الراحة حيث أستنفذ ما تبقى منها. وتوالت الأيام والسنون وأنا على تلك الحال حتى صرت مدمنة، عليك حاولت التخلص منه بعد زواجك بي.. لقد تمسك بي وشد على أنفاسي حتى صار الطاقة التي بها استمد الحياة.

كانت وهي تلفظ آخر عباراتها متعبة لاهثة الأنفاس دامعة العينين وقد استبد بها رعب أنساها معاناتها السابقة وقالت، وهي تجد صعوبة كبيرة لمواصلة الكلام المقنع :

- أعرف أن عذري غير مقنع بالنسبة لك على الأقل ولكنني على يقين أنني غير مذنبه حيث لم أكن بين حلقات هذه السنين من العذاب غير بذرة نبتة تحاول مواصلة رسالتها رغم كل العوائق فلا يهمها حيث نبتت، في مرج أخضر أو على شفى قمة جبل بركاني ساخن.

تحامل على نفسه متعبا وغير خطوات متثاقلة، وفتح الباب

الخارجي، وسار في اتجاه الغابة المجاورة، أحس أنه في حاجة الى فضاء أرحب بعد أن شل تفكيره أمام سقوط مفاجئ لأحد مبادئه، في عقر داره ومع قرينته، تلك التي شهد لها بالكمال.

لم يستقر بمكان، كان طريد تلك المبادئ الكثيرة وذلك السقوط، وركز اهتمامه نحو ذاته فوجدها خواء فأحس لأول مرة بخوف غريب، ودبت فيه ارتعاشة أغرب، وبدأ له أنه لم يعد يحفل كثيرا بموضوع تعاطي زوجته التدخين، وانتهى الى قرار بأنه غير قادر على فراقها من أجل هذا الفعل، وإنما كان الخوف كل الخوف من أن تتساقط هذه المبادئ الواحدة تلو الأخرى.

الناصر التومي



للكاتب المكسيكي الكبير
خوان رولفو
ترجمة :
أبو بكر العيادي

أصوات، جلبة، أغان
بعيدة: ضجيج

فاتنتي اعطتني منديلا
فاتنتي اعطتني منديلا
موشى باشرطة من دموع
موشى باشرطة من دموع
في أقصى الجواب. كأنها
نسوة يغنين، رأيت عربات تمر،
مشية الثيران البطيئة، طقطقة

فصل من رواية

« بكارو بارمو »

ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

الحجارة تحت العجلات..

بدا الرجال كأنهم نائمون.

« ... كل صباح ترتجف القرية عند مرور العربات، تأتي من كل مكان فائضة بملح البارود، وسبلات الذرة، والعلف، تصر عجلاتها وتوقظ الناس وترج النوافذ. في تلك الساعة، تفتح الأفران فتضوع رائحة الخبز الساخن. وفجأة قد تنهشم السماء في شكل رعد. قد يهطل المطر، قد يقبل الربيع. هناك، سوف تتعود على الاهتزازات يا ولدي.»

عربات فارغة ترحي الصمت في الشوارع، وتضيق في ثنية الليل المظلمة، والأشباح، صدى الأشباح، فكّرت في العودة على إثري، لمحت الثنية، هناك في العلو، من حيث أتيت، مثل أخدود في ظلام الروابي.

عندئذ لمس أحدهم كتفي.

— ماذا تفعل هنا ؟

- جئت أبحث عن... - كنت ساقول من ولكني ملكت نفسي
- جئت أبحث عن والدي.
- لماذا لا تدخل ؟

دخلت.. نصف السقف منهار في البيت. والقرميد على
الارض، تحت النصف الآخر، رجل أت.

سألتهما :
ألم تموتا
ابتسمت المرأة.
ونظر الي الرجل بوقار...
قال : إنه سكران.
قالت : انه خائف.

هناك مسرجة خزان بترول. هناك سرير من الخيزران
وأريكة القيت عليها ثياب المرأة، لأنها كانت عارية كما خلقها
الرب. هو أيضا.

- سمعنا أحدا يئن ويضرب رأسه على بابنا. أهو أنت ؟ ماذا
حدث لك ؟

<http://Archivebeta.Sakhril.com>
- حدثت لي أشياء هي من الكثرة بحيث أنني أفضل أن
أنام.

- لقد كنا نائمين، نحن.
- إذن، لننم.

أطفأ الفجر ذكرياته شيئاً فشيئاً. كنت أسمع من حين إلى
آخر صوت الكلمات فأحس باختلاف تلك التي سمعتها حتى ذلك
الوقت، فهمت ذلك متأخراً، لم يكن لها أصوات. لم تكن ترن، كانت
تسمع، ولكن دونما صوت، كما في الأحلام.

سألت المرأة :
- ترى من يكون ؟
أجابها الرجل :
- من يدري ؟

- كيف وصل حتى هنا ؟
- من يدري ؟
- كاني سمعته يقول شيئا ما عن والده.
- أنا أيضا، سمعت.
- أليكون تائها ؟ هل تذكر تلك المرة التي قال فيها أناس إنهم ضلوا الطريق فتكدسوا هنا. كانوا يبحثون عن مكان اسمه «لوس كوفينس» فأجبتهم أنك لا تعرف أين يوجد.
- نعم. أذكر؛ ولكن دعيني أنام. لم يطلع النهار بعد.
- لم يبق إلا القليل. إذا حدثتك فلكي تستيقظ. لقد أوصيتني بأن أوقظك قبل طلوع الفجر. هذا هو السبب ! انهض.
- ولماذا تريدان أن انهض ؟
- لا أعلم عن ذلك شيئا. قلت لي البارحة أن أوقظك. ولم تشرح لي لماذا.
- إذن دعيني أنام. ألم تسمعي ما قاله الآخر عندما وصل ؟ أن نتركه ينام. ذلك كل ما قاله.
- وكان الأصوات ولّت. كان ضجيجها ضاع. كأنها اختنقت. لم يعد أحد يقول أي شيء. إنه النوم.
- ثم ما لبثت ، من جديد :
- لقد تحرك. لعله سيستيقظ. لو يرانا هنا فسيلقي علينا أسئلة.
- ما هي الأسئلة التي يمكن أن يسألها ؟
- هيا هيا ! لا بد أن يقول شيئا ما. لا ؟
- دعيه. لا شك أنه متعب.
- أتظن ؟
- اسكتي يا امرأة.
- انظر. إنه يتحرك. أرايت كيف يتخبط. كأنّ هناك من يخضّه من الداخل، أعرف. لأن ذلك حدث لي.

- ماذا حدث لك ؟

- هذا.

- لا أدري عما تتحدثين.

- لم أكن لأقول لك شيئا لو لم أتذكّر، وأنا أراه يتحرك، ما حدث لي، في أول مرة فعلت لي هذا. كم تعذّبت وكم ندمت، على ذلك !

- على ماذا ؟

- على الكيفية التي احسست فيها بنفسني بعد أن فعلت لي هذا، لأنني، حتى وإن كنت لا تريد أن تعرف، فهمت أن ذلك مؤلم.

- والآن أيضا تطلعين علي بهذه الحكاية ؟ نامي ودعيني أنام.

- طلبت مني أن أوقظك. وهذا ما أفعله، أقسم بك أنني أفعل ما طلبته مني. هيا، حان الوقت لكي تنهض.

- دعيني وشأني، يا امرأة.

بدا الرجل نائما، وتابعت المرأة تذرهما ولكن بصوت أكثر هدوءا.

- لقد طلع الفجر، وبدا الضياء، يمكن أن أرى ذلك الرجل من هنا، وإذا رأيته فهذا يعني أن هناك ما يكفي من الضوء لذلك. الشمس ستشرق عما قريب. والمؤكد أن السؤال لا يطرح حتى مجرد طرح. قد يكون هذا الشخص شريرا ونحن أعطيناه مأوى. لا يهم أننا لم نأوه إلا لقضاء الليل فقد أخفيناه على أية حال. سيجلب لنا ذلك مشاكل، بطول الوقت... انظر كيف يتحرك، كأنه لا يعرف كيف يتمدد. كأنه قرف من نفسه.

طلع النهار. النهار يحلم الاشباح؛ يحلها. كانت الغرفة التي أوجد بها دافئة، دفء أجساد نائمة، عبر جفوني تسرب ضياء الفجر، لمحت النور، وسمعت :

- إنه يتقلب كالملعون، هيئته هيئة شرير تماما، قم يا دونيس ! انظر إليه. إنه يحك جسده على الأرض ويتلوى حول نفسه، لعابه يسيل، لا شك أن له أمواتا كثيرا يبكتون ضميره. ولم تتفطن الى ذلك مجرد تفطن.

- لا شك أنه شقيّ. نامي ودعيني أنام.
- ولماذا أنام إذا كان ليس لدي نوم.
- إذن، انهضي وانصرفي ودعينا وشأننا.
- ذاك ما سأفعله. سأوقد النار وفي الوقت نفسه، سأقول
لهذا الرجل أن يأتي لينام هنا بجانبك، في المكان الذي سأتركه
له.

- قللي له.
- لن أقدر. سأخاف.
- إذن اذهبي وافعلي ما بدالك، ودعينا وشأننا.
- أنا ذاهبة.
- ماذا تنتظرين ؟
- أنا ذاهبة.

سمعت المرأة تنزل من سريرها، ضربت رجلاها الحافيتان
الأرض، ومرة فوق رأسي، فتحت عيني وأغمضتهما.
عندما أفتحت، كانت هناك شمس زوال، بجانبني، قدح من
القهوة، حاولت أن أشرب منها، ترسفت بضع جرعات.
- هذا كل ما لدينا، اعذرنا. نحن معدمان من كل شيء،
معدمان بشكل !

كان صوت امرأة.

قلت :

- لا تنشغلي بي. لا تهتمّا. أنا متعود. كيف نرحل من هنا ؟
- لنذهب إلى أين ؟
- إلى أي مكان.
- هناك طرق كثيرة، هناك طريق تؤدي إلى «كونتلا»
وأخرى تعيد منها، وثالثة تقود إليها رأسا عبر الجبل. تلك التي
تراها من هنا، لا أدري إلى أين تذهب.

وأرتني باصبعها ثقب السقف المنهار - ومن هنا، تلك التي
تمرّ عبر «شق القمر».

لا تزال طريق أخرى تشق الأرض كلها؛ وهي الطريق التي
تذهب إلى أقصى ما يمكن.

- لعلها الطريق التي جئت منها.

- إلى أين تذهب ؟

- إلى «سيولا».

- هكذا إذن ! ظننت ان «سيولا» تقع من هنا. كنت دائماً
أحب أن أعرف هذا المكان. يقال إن به أناسا كثيرين، أليس كذلك ؟
- كسائر الأماكن.

- هذا إذن ! ونحن هنا، وحيدون. نتحرق رغبة لنعرف الحياة
ولو قليلاً.

- أين ذهب زوجك ؟

- ليس زوجي، إنه أخي، حتى وإن كان لا يريد أن يخفي ذلك.
أين ذهب ؟ يبحث عن شك عن عجل هرب. هذا ما قال لي على أية
حال.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- منذ متى وأنتما هنا ؟

- نحن هنا دائماً. ولدنا هنا.

- لا شك أنك عرفت دولوريتاس بريثيادو.

- ربّما هو، دونيس، أنا لا أعرف عن الناس إلا القليل، لا
أخرج أبداً، لقد بقيت منذ الأزل هنا، كما تراني... يعني، ليس
بالضبط. أقصد منذ أن اتخذني زوجة له. ومنذئذ وأنا أعيش
محبوسة لأنني أخجل أن يراني الناس. لا يريد أن يصدّق ذلك،
ولكن ألسنت مخيفة ؟

- وقفت تحت الشمس.

- تأمل وجهي.

- وجه ككل الوجوه، عادي.

- ماذا تريدون أن أرى ؟

- ألا ترى الخطيئة علي ؟ ألا ترى تلك البقع البنفسجية الشبيهة بقوباء (4) التي تغطي جسمي من أعلى الى أسفل ؟ وهذا ليس إلا المظهر الخارجي ؛ أما بالداخل، فقد أصبحت بحرا من الوحل.

- ومن يستطيع أن يراك، طالما أنه لا وجود لأحد هنا. لقد طفت القرية كلها ولم أر أحدا.

- ذاك ما تظنّ، ولكن مازال هناك بعضهم. قل لي إن كان فيلومينو ليس حياً، إن كانت دوروتيا، وملكيادس، والعجوز برودنثيو، وسوستينس وكل هؤلاء ليسوا أحياء ؟ ما يحدث أنهم يظلون محبوسين. في النهار، لا أدري ماذا يمكن أن يفعلوا. ولكن في الليل يعتزلون في بيوتهم. هنا، الساعات مليئة بالرعب. لو ترى ذلك الجمع من الأرواح المعذبة السائبة في الشوارع ! ما إن يخيم الظلام حتى تخرج. ولا أحد يحب أن يراها. عددها كثير ونحن من القلة بحيث لم تعد لدينا حتى الشجاعة للدعاء لخلاصها، دعاؤنا لن يكفيها كلها. أقصى ما يمكن أن تحصل عليه كل واحدة، نزر من الابتهاال «أبانا». وهذا لا يمكن أن يفيدنا في شيء. ثم هناك خطايانا. لا أحد فينا، نحن الذين لا يزالون أحياء، في نعمة. لا أحد يستطيع أن يرفع عينيه دون أن يحس بهما ملوثتين بالعار والعار لا يشفى المرء منه. على أية حال، هذا ما قال الأسقف الذي مر من هنا منذ مدة من أجل سرّ الميرون (5)، وجلست على الكرسي أمامه واعترفت له بكل شيء.

» - هذا شيء لا يغتفر، قال لي.

» - أشعر بالخزي.

» - هذا لا يكفي.

» - زوجنا.

» - انفصلا، اغربي عن وجهي !

(4) DARTRE ج. قوبة أو قوباء : مرض جلدي يسبب تقشر البشرة.

(5) LA CONFIRMATION سر الكنيسة وفيه تُغشى تمام مواهب الروح القدس.

» حاولت أن أقول له إن الحياة وحَدَّتْنا، حوَّشَتْنا معا،
وضعتنا جنباً إلى جنب. كنَّا على درجة من الوحدة بحيث لم يكن
شمة إلَّا أنا. كان ينبغي أن نعيد إعمار القرية بشكل أو بآخر.

» - لعلك تجد أحدا تفشي إليه سر الديانة المسيحية عندما
تعود.

» - انفصلا. ذلك كل ما يمكن فعله.

» - ولكن كيف نعيش ؟

» - كالإنسان .

» ورحل، على بغلته، جامد الوجه، دون أن يلتفت إلى
الوراء. كأنه ترك هنا صورة الهلاك الأبدي. ولم يعد أبداً. لهذا، كل
شيء يزخر بالأرواح المعذبة. غَدُوَ ورواح لأناس ماتوا دون غفران
ولن ينالوه بأية طريقة، وبصفة أقل إذا لجؤوا إلينا. ولكن ها هو،
أُتِسمعه ؟

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sa>

- نعم أُتِسمعه.

- إنه هو،

انفتح الباب وسألته

- والعجل ؟

- لم يأت. ولكني اقتفيت أثره وأعرف تقريبا أين يوجد.
سأقبض عليه الليلة.

- ستتركني وحيدة، هذه الليلة.

- ربَّما.

- لن أحتمل ذلك. أنا بحاجة لوجودك معي. إنها اللحظات
الوحيدة التي أحس فيها بالاطمئنان. في الليل.

- الليلة، سأذهب بحثاً عن العجل.

قلت :

- لقد علمت منذ حين أنكما أخ وأخت.

- منذ حين ؟ أنا علمت بذلك قبلك بكثير، إذن، خير لك ألا
تحشر نفسك في هذه المسألة. لا نريد أن نكون موضوعاً للحديث.

- قلت ذلك لمجرد أن أفهم. وليس لشيء آخر.

- وماذا تفهم ؟

وقفت بجانبه واستندت الى كتفه وقالت أيضا :

- ماذا تفهم ؟

قلت :

- لا شيء. فهمي في تناقص.

وأضفت :

- أود أن أعود من حيث أتيت. سأغتنم ما تبقى من النهار.

فقال :

- خير لك أن تنتظر. ابق حتى الغد. بعد قليل سيهبط الليل؛ كل الطرق ستغمرها الاشواك. قد تنيه. غدا أدلك على الطريق السوية.

- حسنا.

عبر السقف المنفتح على السماء، لحت مرور أسراب من الزرازير، تلك العصافير التي تطير عند قدوم الليل، قبل أن يمحو الظلام طريقها، ثم بعض السحب التي مزقتها الرياح التي جاءت لتذهب بالنهار. وبعد ذلك ظهر نجم المساء وبعده القمر.

لم يكن الرجل والمرأة معي. كانا قد خرجا من الباب المؤدي الى صحن الدار ؛ ولما عادا. كان الليل مخيما، ولذلك فهما لا يعرفان ماذا جرى عندما كانا خارج البيت.

وهذا ما جرى :

امراة، قدمت من الشارع ودخلت الغرفة. كانت عجوزا أثقلتها السنون. نحيفة كان هناك من سطحها من رجليها الى رأسها. فحصت الغرفة بعينيها المدورتين اتجهت مباشرة الى السرير وسحبت صندوق الأمتعة الموجودة تحته. فتشته، أخذت بعض الأغطية وانصرفت وهي تمشي على اطراف أصابع رجليها وكأنها لا تريد إيقاظي.

بقيت مسعرا في موضعي. أكتم أنفاسي وأجهد نفسي للنظر
إلى جهة أخرى. وفي النهاية أفلحت في أن أشيع برأسي وأنظر
إلى جزء السماء حيث التحق نجم المساء بالقمر. سمعت من يقول
لي :

- اشرب.

لم أجرؤ على الالتفات.

- اشرب، هذا ينفعك؛ إنه ماء زهر البرتقال، أعرف أنك
خائف، مادمت ترتجف، سيزيل هذا خوفك.

عرفت اليدين، والوجه، لما رفعت عيني. سألني الرجل الذي
يقف خلفها.

- أتحمس أنك مريض ؟

- لا أدري، أرى أشياء وأناسا حيث أنتما لا تريان ربّما
شيئا، امرأة كانت هنا منذ حين. لا شك أنكما رأيتماها خارجة.

قال للمرأة -

تعال، دعيه واحدة، لا شك أنه متصوّف.

- يجب أن نعدّه على السرير. انظر كيف يرتجف. لا بد أنه
محموم.

- لا عليك، هؤلاء الناس يتخذون هذه الحال لجلب الانتباه،
عرفت شخصا مماثلا في «شق القمر» يزعم أنه عراف، ما لم يعرفه
أنه سيموت بمجرد أن يتفطن المعلم لدجله. لا شك أن صاحبنا
متصوّف من ذلك النوع. يقضون عمرهم في التنقل بين القرى
«ليروا ما تجود به عليهم العناية الالهية»، هنا، لن يجد أحدا يقدم
له لقمة واحدة. أرايت كيف توقف عن الارتجاف ؟ ذلك لأنه
سمعنا.

كانّ الزمن ارتد، رأيت النجم من جديد بجانب القمر،
السحب التي تتمرّق، سرب «الزراير»، وكذلك المساء، والنور لا
يزال يغمره.

الجدران تعكس شمس المساء. وقع خطواتي على الحجارة
يرتد صداه، والحدوي يقول لي : « ابحث عن دونيا أدبيخس، إن
كانت لا تزال ب قيد الحياة ! »

ثم غرفة مظلمة. امرأة تشخر بجانبني. لاحظت ان أنفاسها
غير منتظمة، كأنها بين يقظة ومنام. وبالأحرى كأنها لا تنام بل
تقوم فقط بتقليد أصوات النوم. السرير كان من الخيزران، مغطى
بأكياس تفوح منها رائحة البول ولم تقع تهوئتها إطلاقاً دون شك:
الوسادة من كتّان غليظ يلفّ إما قطننا أو صوفاً خشناً أو مضمخاً
بالعرق بشكل جعله يابساً مثل الخشب.

أحسست على ركبتني ساقى المرأة العاريتين، ونفسها على
وجهي.

جلست على السرير، واستندت إلى تلك الوسادة اليابسة
مثل أجرة.

سألتني :
ARCHIVE - ألا تنام ؟

- لا رغبة لي في النوم. فتفتطوأل النهار: أين أخوك ؟

- خرج. لقد سمعته. ربّما لا يعود الليلة.

- ذهب إذن، رغم كل شيء، رغم أنك ؟

- نعم، وربما لن يعود. هكذا بدؤوا جميعاً. يذهبون هنا
وهناك. وفي النهاية يرحلون إلى أماكن نائية بحيث لا يعودون
أبداً. لقد حاول دائماً أن يرحل، وأظن أن دوره حان. ربما تركني
معك، دون أن أعلم، حتى تعتني بي، وجد الفرصة. حكاية العجل
إياها، لم تكن سوى تعلقة، سترى إنه لن يعود.

أردت أن أقول لها : « أنا خارج لأشمّ الهواء؛ أحسّ بالغثيان »
ولكنني قلت :

- لا تهتمّي، سيعود.

حين نهضت قالت لي :

- تركت شيئاً في المطبخ على الجمر. ليس ذا بال ولكن
يمكنك من تخفيف جوعك.

وجدت قطعة من اللحم المجفف، وعلى الجمر بعض فطائر
الذرة.

سمعتها تقول من مكانها :

- هذا ما استطعت ايجاده لك، تبادلت مع أختي، أعطيتها
أغذية نظيفة كنت أخذتها من أبي. لا شك أنها جاءت لتأخذها : لم
أشأ أن أقول ذلك أمام دونيس؛ ولكنها هي، تلك المرأة التي رأيتها
وأخافتك.

سواء سوداء مليئة بالنجوم. وبقرها القمر. أكبرها جميعاً.

سألت بصوت خفيض :

- ألا تسمعينني ؟

أجابني صوتها :

- أين أنت ؟

- هنا، في قرينك، قرب أهلك، ألا ترينني ؟

- كلا، يا ولدي، لا أراك.

بدا صوتها يعتنق كل شيء، ويضيع فيما وراء الأرض.

- لا أراك.

عدت حيث تنام المرأة وقلت لها :

- سأبقى هنا، في ركني، على أية حال، السرير يابس

كالأرض. ناديني إن كنت بحاجة لشيء ما.

قالت لي :

- دونيس لن يعود. لحت ذلك في عيني. كان ينتظر قدوم

شخص ما كي يرحل، الآن، أنت الذي سيقوم بي. أم أنك لا تريد :

تعال لتنام معي هنا.

- أنا مرتاح هنا.
- خير لك أن تصعد على السرير. هناك، سيأكلك القراد.

فذهبت وانحشرت بجانبها.

أيقظني الحر عند منتصف الليل. العرق أيضا. كان جسد تلك المرأة، المقدود من طين والمغطى بقشور أرضية، يتفتت، وكأنه ينحل في بركة من الوحل. أحسست نفسي عائما في عرقها المتصبيب. ضاقت أنفاسي، نهضت. كانت المرأة نائمة، ومن فمها تصدر قرقرة تشبه الحشرة.

خرجت إلى الشارع بحثا عن الهواء، ولكن الحر كان يلتصق بجذلي.

ذلك أنه لم يكن ثمة هواء؛ الليل فقط، فاتر وساكن، تحت قيث أفسطس.

لم يكن ثمة هواء. كنت مضطرا إلى استنشاق ذاك الذي يخرج من فمي وأنا أمسكه بكلتا يدي. كنت أحس النفس يروح ويجيء وهو يزداد قصوا إلى أن انفلت من بين أصابعي، نهائيا. قلت، نهائيا.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أذكر أنني رأيت ما يشبه غيوم الزبد تحوم حول رأسي وأنا أغوص فيها وأتية في دوامتها. ذلك آخر شيء رأيته.

أتريد أن تقنعني أنك مت مختلفيا يا خوان بريثيادو ؟ وجدناك في الساحة، بعيدا عن منزل دونيس؛ كان معي وقال لي إنك تتماوت. جررناك نحن الاثنان إلى ظل بوابة ؛ كنت يابسا، متشنجا. كما يفعل أولئك الذين يموتون خوفا. إن لم يكن هناك هواء تتنفسه في تلك الليلة التي تتحدث عنها فإن قوانا خذلتنا في حملك. وتخذلنا أكثر في دفنك، وها أنت ترى أننا دفنأك.

- معك حق يا دوروتيو. قلت إنك تدعين دوروتيو ؟

- سيان، اسمي دوروتيا. ولكن لا يهم.

- بكل تأكيد، يا دوروتيا. الوشيش هو الذي قتلني.

« هناك ، سوف تجد مسكني. المكان الذي أحببت حيث عرنتي الاحلام من لحمي. قريتي، منتصبه على السهل، مليئة بالاشجار والاوراق، مثل حصالة نحفظ فيها ذكرياتنا، ستفهم أننا نريد أن نعيش هناك الى الأبد. الفجر، الصبح، الزمان والليل، هي ذاتها دائما، ولكن هناك اختلاف في الهواء. هناك، الهواء يغير لون الاشياء، الحياة تنحل في همسة؛ كانها لم تكن سوى همسة حياة...».

- نعم يا دوروتيا. الوشيش هو الذي قتلني، حتى لو تجاوزت الخوف. لقد تراكم، تكسد بداخلي حتى صرت لا أحتمله، وحينما صادفت الوشيش، انهارت أعصابي.

« وصلت الى الساحة، كلامك صحيح. الوشيش هو الذي قادني اليها. لم تكن رجلاي على الارض تماما ؛ أذكر أنني كنت أستند إلى الجدران كأنني أمشي بيدي. وتلك الجدران بدت كأنها تبث الوشيش عبر ثلماتها وجلقاتها. كنت أسمعها. كانت أصواتا ولكنها غير واضحة ؛ أصوات خفية. كأن أناسا يهمسون لي شيئا وهم يمرون، كأنهم يطنون في أذني. ابتعدت عن الجدران لأمشي وسط الشارع، إلا أنها ظلت تطرق سمعي. كانت تتقدم نحوي، تارة من أمام وطورا من خلف. لم أشعر بالحر كما قلت لك ؛ بالعكس، كنت أشعر بالبرد. منذ أن غادرت منزل تلك المرأة التي أعارتني سريرها، والتي رأيتها كما قلت لك، تنحل في ماء عرقها، منذ تلك اللحظة تملكني البرد. كنت أمشي والبرد المتزايد ينفش شعر بدني. أردت أن أعود على أعقابني وأنا أنوي أن أجد الحرارة التي تركتها ؛ ولكن اتضح لي بعد خطوات أن البرد أت مني، من دمي. عندئذ أدركت أنني خائف، سمعت بوضوح أكبر جلبة الساحة وظننت أن الخوف، هناك، وسط الحجرة، سيزول عني. لذلك وجدتني هناك، إذن، عاد دونيس رغم ذلك ؛ لقد كانت المرأة واثقة من أنها لن تراه ثانية.

- كان النهار قد طلع حين وجدناك، هو. كان عائدا من حيث لا أدري. لم أسأله عن ذلك.

- حسنا وصلت إذن الى الساحة. أسندت ظهري إلى ركيزة

البوابة. رأيت ألا أحد هناك ومع ذلك كنت دائماً أسمع ذلك اللوشيش الذي يشبه ضوضاء جمع من الناس في يوم السوق. ضوضاء متجانسة دونما فرقات، شبيهة بالريح في الأغصان، أثناء الليل، حينما لا نرى شجرة ولا أغصاناً ولكننا نسمع الضوضاء وهناك، لم أخط خطوة أخرى. بدأت أحس أن ذلك الطنين الكثيف مثل طنين فرق نحل يغمرنى؛ استطعت أن أميز بعض كلمات، دون صوت تقريباً: « ادع لنا الرب » هذا ما قيل لي. عندئذ تجمدت روحي. لذلك وجدتماني ميتاً.

- كان عليك أن تبقى في بلدتك. ماذا جئت تفعل هنا ؟

- قلت لك ذلك منذ البداية. جئت أبحث عن بدرو بارمو الذي كان، فيما يبدو والدي. الأمل هو الذي جاء بي.

- الأمل ؟ إنه باهظ الثمن، أنا، كلفني كثيراً أن أعيش أكثر من قسطنطين، إنه الثمن الذي كان على أن أدفعه لكي أجد ابني الذي لم يكن، في الواقع، سوى أمل آخر ؛ لأنني لم أنجب قط ولداً. الآن وقد مت، وجدت متسماً من الوقت لكي أفكر، وأفهم كل شيء. لم يمنحني الإله حتى عشاً لإيوانه. فقط تلك الحكاية الطويلة البائسة، التي كنت أسوقها، منقولة هنا وهناك عيني، الكئيبتين اللتين كانتا تنظران دائماً بمواربة، وكأنهما تريدان أن تريا الجانب الآخر للناس، وأنا أشك أن هناك من أخفى عني ولدي. وكل ذلك بسبب حلم لعين. إذ أنني رأيت حلمين : واحد أسميه « السعيد » والآخر « اللعين ». الأول صور لي أن لي ولداً. ولم أكف يوماً عن تصديقه طوال المدة التي بقيتها على قيد الحياة فقد أحسسته بين ذراعي، حنوناً، بقمه وعينيهِ ويديه ؛ خلال وقت طويل احتفظت في أصابعي بانطباع عينيهِ النائمتين ودقات قلبه. كيف لا أصدق ذلك. كنت أخذه في كل مكان. ملفوفاً بخماري، وفجأة ضاع مني. في السماء، قيل لي إنهم أخطؤوا في حقّي. إنهم وهبوني قلب أم ولكنه حزن خليط. هذا هو الحلم الآخر. وصلت إلى السماء وبحثت عن وجه ابني بين الملائكة. لا شيء. كل الوجوه كانت متشابهة مصبوبة في قالب واحد. عندئذ سألت، واحد من أولئك القديسين الموجودين هناك دنا مني، ودون أن يقول لي شيئاً، غرز

يده في معدتي كأنما غرزها في الشمع، وعندما سحبها، أراني نوعاً من قشر الجوز : « هذا يثبت ما يبرهن لك عليه ذاك ».

« تعرف كيف يتحدثون بشكل غريب هناك، في الأعلى ؛ ولكننا نفهمهم أردت أن أقول لهم إن تلك هي معدتي، ببساطة، أذهبها الجوع وقلة الطعام ؛ ولكن قديسا آخر دفعني من كتفي وأراني باب الخروج : « زيدي استريح قليلا على الأرض، يا ابنتي، وحاولي أن تكوني عفيفة لتقضي أقل وقتاً في المطهر ».

« هذا هو الحلم اللعين الذي رأيته وجعلني أدرك أنني لم أنجب قط ولدا. عرفت ذلك بعد فوات الأوان، عندما جف كامل جسدي، عندما صار ظهري أعلى من رأسي، ولم أعد قادرة على المشي. كانت القرية تفرغ ؛ كلهم رحلوا الى أماكن أخرى، واختفت معهم الصدقة التي كانت تقيم أودي. جلست أنتظر الموت. حينما وجدناك، قررت عظامي أن تبقى هائلة. قلت في نفسي : « لا أحد يهتم بي ». أنا شيء لا يزعم أحدا. أرايت، أنا لم أسرق حتى بقعة من الأرض. دفنوني في قبرك، وأنا مرتاحة في تجويف ذراعيك. هنا، في هذا الركن الذي تراني فيه. إلا أنه يخطر ببالي أن أمسك أنا بين ذراعي. أسمعني ؟ في الخارج، المطر يهطل، ألا تحس به ؟

- أحسن أن شخصا يمشي فوقنا.

- كف عن الخوف. لا أحد يمكن أن يخيفك الآن، حاول أن تفكر في أشياء مريحة، إذ إننا سنبقى مدفونين مدة طويلة.

عند الفجر، نزلت قطرات غزيرة من المطر على الأرض، كانت تحدث نقرا وهي تضرب التربة الرخوة التي تملأ الائتلام، مر هنبير (6) على وجه الأرض وتأوه، مقلدا.

(6) طائر يشبه الشحرور يقلد غناء الطيور الأخرى.

* خوان رولفو (خالسكو 1917 - مكسيكو 1986) من أهم كتاب أمريكا اللاتينية رغم أنه لم يترك سوى أثرين هما رواية «بدرو بارمو» الصادرة عام 1955 وقصص «السهل المشتعل» (1953) التي أعيد طبعها عام 1970 بإضافة قصتين.

* كتب للسيئما والتلفزيون وشغل منصب مدير في المؤسسة الأهلية بمكسيكو.

* يستمد موضوعاته من أرياف ولاية خالسكو حيث نشأ ويصور أناسا بدائيين متساقين إلى المصيبة أو الجريمة أو الموت في حالة يأس وجودي.

تعريب : أبو بكر العيادي



استهلون

لغة القص العديد من الأقلام، فامتلات الساحة الأدبية بمئات القصص، ونافست الشعر. الا أن الحركة النقدية ما زالت قاصرة عن استيعاب انتاج المطابع الغزير. وترجع هذه الكثرة الى طبيعة الانسان، فهو مخلوق (حكاه) بالفطرة. ولما كان اطار (القصة القصيرة) يشد الكثير من الكتاب،

لماذا تموت العصافير؟

لهذا كان نصيب (الرواية) من ناحية الكم قليلا قياسا الى سهولة أن تطرأ فكرة قصصية لكاتب، فيصوغها في قالب (القصة القصيرة). لهذا فانه من الظلم أن نسمي كل ما هو معروض علينا قصصا. مثلما نقول إن الانسان مخلوق تكتنفه العديد من المشاعر، فيعبر عنها في قالب (شعري)، لكننا لا نستطيع الوقوف طويلا عند كل ما هو شعر، في معرض الحديث عن (القيمة الفنية). ومن الانصاف، للابداع الأدبي، شعرا كان أو قصة، أن تقتصر الدراسات الأدبية والنقدية على كل عمل أدبي متميز.

واذا كان من الممكن أن تكون حكاية ما، صالحة للغة قص فنية، فالكلام هنا قاصر، ويجني على التشكيل الجمالي الذي نبتغيه. وقد انجرف بعض الكتاب والنقاد في مجال الأسلوبية والبنائية، وأتوا بما يرونه جديدا، في ضوء المقاييس النقدية. فوفقت أقلام، ولم يحالف الحظ أقلاما أخرى أصابها جفاف المقولات والتنظيرات، وصرامة المنهج النقدي، فافتقدنا الاحساس بالقيمة الجمالية للنص، وهو أساس مهم للتذوق الأدبي.

والحديث ذو شجون. لكن انتابتنى الحيرة عندما تناولت مجموعة قصصية بعنوان (لماذا تموت العصافير ؟) صدرت عام

1988 للكاتبة التونسية ريم العيساوي. وقد شدتني المجموعة في بعض قصصها، وحفزتني للكتابة عنها، وأبعدتني قصص أخرى. وحسمت الحيرة بتناول الايجابيات والتنويه عن السلبيات، انطلاقا من احساس بأن ريم العيساوي قلم يرتجي منه الكثير في الابداع القصصي.

استوقفتي ريم لأجيل النظر في عالمها القصصي، فهي تنتمي الى دنيا البسطاء وتتعاطف مع قضاياهم، وتكتب بأسلوب شاعري يشد المرء ويجذب به الى القراءة دونما ملل حتى يصل الى سطور الختام. وقد تجنح الكاتبة الى الخيال فتحكي بطريقة الحكايات الشعبية، وقد تميل الى دنيا الطير والحيوان، تستلهم منها الرمز والايحاء، أو تجعل من طير ما أو حيوان ما شخصية محورية تبني عليها القصة، وتخرج على قضايا المرأة، غامسة قلما في مداد الهم الوطني الى جانب الهم الاجتماعي، كما أن لها غير قصة تتحدث فيها عن أيقاع العصر، سريع التغير، وما نشهده في الساحة من عنف.

تحت عنوان (الصقر والراعي والسلطان) تنسج ريم قصتها بأسلوب الحكايات الشعبية. والعنوان اطار محدد لثلاثة : الصقر ابتداء ، فالراعي، ثم السلطان. والسلطان هو صاحب القوة والمنعة، لكن الكاتبة جعلته آخر الثلاثة، برغم نفوذه وسلطوته، وأعطت الأولوية للصقر حارس النهار كما تسميه، أو هو حارس لحقوق العامة من بطش صاحب الجبروت. أما الراعي فتنتقل رصاصة على رأسه وهو يطالب بحقوق المستضعفين. ينتقم الصقر، فيأتي على قصر السلطان. كما تصغي الى العرافة التي تؤكد على ما قالتها سلفا بأن الصقر ينبئ بالخراب، عيونه نار، ولونه دخان. والقضية المثارة صورة مصغرة لقضايا عديدة، عندما يستأثر السلطان بالماء كله، فيطلق على الراعي رصاصة، فانتمى الصقر للراعي. والصقر هنا يلعب دورا أساسيا، لهذا لا نذهب بعيدا اذا اعتبرناه محور القصة، أو عمودها الفقري، فهو البديل الموضوعي للقاضي العادل، الذي يسترد حق الضعيف من القوي. وجاء اعتلاء الصقر لمنذنة المسجد واعتصامه بها، ايماء ذكية الى أن العدل لا يتحقق الا في ظلل الدين.

ان صياغة الكاتبة لعباراتها بطلاقة وبساطة، يجعلها قادرة على توصيل رؤيتها بأقصر الطرق. وهي تجنح الى الخيال فتصوغ أفكارها بأحداث بعيدة عن الواقع، وان دخلت في صميمه ونسيجه لأن ما تبذعه يخدم الفكرة. انها تلجأ الى أقصر الطرق، ذلك أن خط الكاتبة واضح، وهي حريصة على أن تضع بين يدي قارئها كل ما يساعده على فهم الفكرة، فأتسمت كتابتها بالبساطة. وفي قصة (القبلة) نلتقي بمهمة الكاتب تدعوه الى الايمان من أول سطر الى آخر سطر، مثل دعوتها في قصة (الصقر والرامي والسلطان). لكن الدعوة في هذه القصة مغلفة بايماء لا يعوزها الوضوح، باعتصام الصقر بمنذنة المسجد، أما في (القبلة) فالدعوة صريحة وواضحة.

وارتكزت المعالجة على صور وأخيلة وتشبيهات من عالم الطير والحيوان. تأتي بطريقة عفوية، ويسهل التقاطها عبر سطور متناثرة هنا وهناك، من بداية القصة حتى نهايتها. وتساعد هذه الصور والأخيلة على نقل الجو النفسي لبطل القصة، وما حوله، وعلاقته بالفتاة التي أتته من (الطابق العلوي). وهي جارته لكن الصياغة والمضمون يوحيان للقارئ أن الطابق العلوي رمز للسماء وهل أدلك إلى ذلك وهذه دعوة صريحة تأتيه من الفتاة بالايمان والصلاة، وتحية بتحية الاسلام ابتداء ٩.

فلنتحدث عن عالم الطير والحيوان الذي استعانت به كاتبتنا..

تستهل القصة بوصف للغرفة الضيقة التي يعيش فيها الكاتب، بأثاثا المبعثر وكتبها المتربة، ومخدة مهترئة موضوعة على سريره «تبدو أحشاؤها من غلافها كأمعاء كبش مطعون». وهو وصف دقيق للمخدة الممزقة القديمة، لكنه اسقاط لحال صاحبنا نفسه كأن الوصف يترد الى ساكن الغرفة الضيقة، وتصف حاله هو أيضا بأنه «كبش مطعون». ونتبين مأساته في أنه عاجز عن الماضي في الكتابة، فيتمرد على الكتب والأوراق فيبعثرها.. «وتتطاير الكتب في فضاء الغرفة كطيور مصابة برصاص وتهوي».. تأمل جيدا، وتخيل طيوراً مذعورة اثر اطلاق الرصاص. هكذا حال كتبه وأوراقه وهي مبعثرة. والذعر يستكن في نفسه، وما تصرفه هذا الا انعكاس لنفسه المهتاجة كأن رصاصا أطلق عليه هو. ولا شك أن صاحبنا الكاتب وحاله لا يسر، في حاجة

الى من يدخل الطمأنينة الى قلبه. انه في حاجة الى من يمسك بيده، ويدله على أول الطريق، فكانت الفتاة التي تمسك بيدها «عصا طويلة بيضاء فتبدو مروضة أسود أو لاعبة بهلوانية» وبذلك تحددت مهمة الفتاة، فهي التي ستخرج الكاتب من عزلته وانهازميته، وتبث في صدره الطمأنينة، مثل (مروضة الأسود) في السيرك. وعودة الى غرفته، التي تصفها هذه المروضة التي سميت سناء، أو حسناء بحذف الحاء، عندما شاءت مداعبته، في قولها له : «غرفتك كفريسة متعفنة، ألا تشم ؟». الوصف المقرز في كلمتين (فريسة متعفنة) أعطى جرعة كافية لنسلم مع الكاتبة بالحال المزرية التي وصل اليها كاتب مشغل في غرفته عن الناس وحياتهم !. وتضيف قائلة : «عزلتك هي مصيبتك، أنت طائر مقطوع الجناحين، عاجز عن التحليق». وإذا ما قطع جناحا الطائر، فقد أعز ما يملك. وكيف يكون طائرا بلا جناحين ؟ هكذا ارتد الوصف الى صاحبنا، فساعد القارئ على فهم الصورة، وتخيلها. ولو اكتفت الفتاة بقولها «أنت طائر مقطوع الجناحين، عاجز عن التحليق»، لكان أفضل. لكن الكاتبة تسرد أفكارها بوضوح. ويبدو أن خبرتها في تعليم النشء تركت بصمات واضحة على قصصها. وقد استرسلت تقول لصاحبها : «عزلتك سلاسل تقيد جناحيك والصلاة تساعدك على قطع هذه السلاسل». وهو استرسال لا طائل منه. علاوة على التناقض في قولها : «طائر مقطوع الجناحين» مع ما كتبت في نفس الفقرة : «عزلتك سلاسل تقيد جناحيك» وبعد أن يقطع الجناحان. كيف يكونان مقيدين، ويحتاجان الى من يفك السلاسل التي تقيدهما ؟. وتسترسل أمرة اياه بالسجود والركوع، وتكرر هذا الأمر ثماني مرات، وبذلك «ليظل كتابك في الدهر ويخلق طلقا كالطير» .. والعبارة منسجمة مع رغبة الفتاة في اخراج الكاتب من عزلته، محلقا في الفضاء. وحين تتحقق أمنيتها، يصف الكاتب نفسه : «لقد حلقت مع العصفير ورأيت أناسا كثيرين يحلقون مثله». حينذاك رأى كتابه على حقيقته، وعلى صورة غلافه رأى «عنكبوتا كبيرا مخيفا».. أي لا قيمة له.. ولما رأى رجل أعمى يحلق مثله في السماء، رمى الكتاب في وجهه «فكسر جناحي فهويت». ومن جديد، ينكسر جناحاه ويرتد الى عالمه الأرضي.

وفي قصة (لماذا تموت العصافير) حبكت ريم العيساوي قصتها، ووضعتها في إطارها الفني المناسب، بعيدا عن الفكرة المباشرة والقول الصريح، وأدركت الفرق بين الرؤية الفنية والعلمية التعليمية. فقد صنعت إحياء رمزيا، عن طريق معادل موضوعي، من خلال الطائر الصغير الضعيف الجميل الفرد. تبدأ القصة بغياب الطفل خالد مع والده. تقلق الزوجة. يرتاد الأب واسمه (المكي) الحانات. صاحب ابنه معه، فاذا هما يصبحان جثتين داخل (داموس). والخط الموازي للفاجعة، فاجعة أخرى أشد وأنكى، وهي ارتداء زوجة (المكي) في أحضان رجل، عند مدخل الداموس، شوهدت العصافير ميتة؟ مقتل الطفل خالد، هو اغتيال للبراءة، انه عصفور صغير يخطو خطواته الأولى في الحياة. وتنتهي القصة بهذا التعقيب، ذي المغزى : «وكان أحد العمال واضعا عصفورا ميتا على الطاولة ويقول لرئيسه : «لماذا تموت العصافير ؟ والسؤال ذاته يتردد على لسان الطفل : «لماذا العصافير ميتة في مدخل الداموس يا أبتى ؟».

الزوج حارس للداموس، ويعمل بنظام الوردى المتغيرة. تخونه زوجته وهو في عمله الليلي، مصطحبا طفله معه، وهي الليلة التي دفنا فيها داخل الداموس. وقيل الحادث، يعود الزوج كل يوم الى بيته وهو في حالة سكر بين. فهل خيانة الزوجة انتقام لما آل اليه حال الزوج وإهماله أنوثتها ؟ وراح الطفل ضحية إهمال أبويه. هل يعتبر تحليلنا هذا اجابة قطعية عن السؤال : لماذا تموت العصافير ؟ وفي الجانب الآخر، عمل المكي شاق وقاس، وقد روت الكاتبة جانباً من آلامه، اذ مات زميله داخل نفس الداموس. وتربص به يربوع صغير فعضه عضه دامية، ونجا من داء (الكلب) بأعجوبة، وكان قبل موته.. «يعيش موتا متواصلا، يحاصره في كل لحظة من لحظاته. انه يعيش احتضارا ممتدا».

وتتفوق الكاتبة ريم العيساوي على نفسها في قصة (أنا وأخي والحصار)، حيث تخط ببراعها أحاسيس ومشاعر تجعل القارئ مشدودا الى القصة حتى آخر سطر فيها. ذلك أن القصة تأخذ مسارها الطبيعي الى مسارب النفس، وتخطب وجدان القارئ وتنقله الى عالمها طواعية. القصة مروية على لسان بنت

صغيرة، في رحلة شاقة الى أمها. تحدثنا البنت الصغيرة عن رحلتها هي وأخيها على ظهر حمار، من بيت أبيها الى بيت أمها، فالأبوان منفصلان. ويعيش الصغيران مع أبيهما حيث زوجته تقسو عليهما. يتوقان الى حنان الأم التي تزوجت هي الأخرى. الرحلة شاقة بطول المسافة التي صنعها الأبوان بين داريهما، فتركت جدارا نفسيا هائلا.

تروي البنت القصة وقد دق حسها بمؤثرات ثلاثة : هي وأخيها والحمار.. «أنا وأخي والحمار مجهولون في دنيا الضياع». الطرف الثالث الحمار صار شريكا معهما في رحلة الضياع. وكما فعلت الكاتبة في قصصها : (الصقر والراعي والسلطان) و (القبلة) و (لماذا تموت العصافير)؟، تستعين في قصتها (أنا وأخي والحمار) بالصورة والأخيلة من عالم الطير والحيوان، فترسم الجو النفسي، وتحدد هويات الشخصيات ودوافعها. وزادت هنا فجعلت (الحمار) شخصية أساسية لها دور مهم في رسم الحدث، مثل دور الصقر في قصتها.

ولو أغفلنا عالم الطير والحيوان من قصة (أنا وأخي والحمار) لفقدنا الكثير من سمات هذه القصة. فالدور البارز الذي تجسد بتلك الكائنات التي تقاسمت حياتنا، كفيل لها بأن تكون شريكة في استعمال الصور الفنية التي يبتدعها الأديب الفنان. تبدأ القصة بالفقرة : «الصمت يخنق الفضاء... نجاح الكلاب من بعيد يردده صدى الجبال المتراسة المخيفة كالغيلان... حوافر الحمار على الصخور القاسية تؤنسنا، وتطرد عنا شبح الخوف... حوافر الحمار ودقات قلبينا ساعة دقاقة متحركة، ذات عقارب ثلاث». في سطور قليلة تعرفنا على الكلاب والغيلان والحمار. الكلاب تنبح، فيأتي الصوت من بعيدو تردده الجبال المخيفة المنتصبة كالغيلان. ويأتي الى مسامع الصغيرين صوت حوافر الحمار فتؤنس الوحشة. وبتأمل هذا الدمج بين الحمار والصغيرين، وجعل دقات الحوافر شبيهة بدقات قلبي الصغيرين.. كان الزمن قد تحدد بساعة ميقاتية جديدة «ذات عقارب ثلاث». هذا المزج بين عالم الانسان وعالم الحيوان، يشكل صورة معبرة صادقة. وما أشبه الفقرة السابقة بلوحة فنية تتحدد أبعادها

بظلال وألوان متباينة، تمس شغاف القلب وتحقق الاجادة في رسم اللوحة بفقرة ثانية تقول كلماتها المعبرة بصدق : « أنا وأخي والحصار مجهولون.. في دنيا الضياع.. أنا وأخي والحصار نتحدى الزمان، ذلك اندي نحس بثقله ولا نراه وكلما بعدنا عن القرية وتوغلنا في الطريق الترابي الضيق وفي الجبال، قطعنا حلقة من حلقات قيودنا ». هذا الثلاثي يشكل المؤثرات الثلاثة في رسم الحدث الدرامي. والبنت الصغيرة تدق أحاسيسها مع دقات قلبها، وغول الخوف لم يزل يسكن بداخلها. وتقول عن الحصار في موضع آخر : « الحصار سفينتي في هذا البحر الهائل الصامت ». فالحصار هنا هو الصورة الودية الهادئة على عكس ما شاع عن اقلاقه للراحة بنهيقه المزعج. الحصار هنا غير ما تعارفنا عليه. فهو مبعث الطمأنينة، وهو السفينة التي تنقلها الى بر الأمان، وهو طارد لشبح الخوف بصوت حوافره. وتمضي القصة، تترجم أحاسيس البنت الباحثة عن أخيها. في ذلك اليوم كانت وحيدة في الطريق مع ظلها.. أو « لو أنزع ثيابي وأطرحها كما تفعل الحية ». وكانت هناك مؤثرات ثلاثة أخرى تحددها الكاتبة فتقول : « أنا والطريق والعراء عالم مجهول في تاريخ الزمان، أتوقف لحظة، وأتأمل، فإذا بأكداس الغسقاط كأنها بحيرة ضفادع »... و « تمنيت لو تمر جرادة فتؤنسني وتهديني الى النهاية »... و « أمد خطاي غير مبالية بالأحجار الصماء التي تلسعني وأقفز كالعنز على صخور الجبال »... فنتعرف على عالم الكائنات الحية في خيال البنت الصغيرة، الحية والصفدة والجراد والعنز. تتمنى البنت أن تكون كالحية، تغير ملابسها مثلما تغير الحية جلدها، وتتمنى أن تؤنسها جرادة، وتقفز على الصخور - في الواقع - كالعنز، فترسم أمنيتها وتشبه نفسها بالحيوان، وترسم الطبيعة الصماء بأشكال الحيوان.. أكداس الغسقاط بحيرة ضفادع.. تعود الى رحلتها مع أخيها والحصار.. « أنا وأخي والحصار مجهولون في دنيا الضياع. الطريق ما زال طويلا. الشمس على رؤوسنا مظلة حامية، شعرت بثقل عذاب الحياة، بألم الأبدية يملك ذاتي ويقيم في أعماقي ». وتنتهي القصة بذكر حيوان آخر هو الثعبان، حيث يصبح أخوها وقد هاله منظر الثعبان وهو يتلوى على قائمتي الحصار، ويلدغه. ويكون الوافد الجديد هو المؤثر الرابع، يقوم بدور الشرير يقلق

الطيبين الثلاثة.. «توقف الحمار أوقف الشعبان الحمار، لسعه، أوقف، الشعبان الزمان الذي كان يجري. أصبح الشعبان زمانا. أصبح الزمان شعبانا ! أحسست بالدنيا تدور بي دورانا جنونيا. وشعرت كأن الثلج يجمد عروقي، وأبصرت وجه زوجة أبي في وجه الشعبان». ولعبت الكاتبة لعبتها الفنية الذكية. فخلطت بين الشعبان والزمان، لدور الشعبان المفاجئ في إيقاف رحلة الثلاثة. واختلط الشعبان والزمان في مخيلتها فصارا شيئا واحدا يناصبها العداء. كما أن وجه زوجة أبيها رأت في وجه الشعبان!.. بل تناهى الى سمعها صوت للشعبان شبيه بصوت زوجة الأب تستحثه كي يزيد في إيلاهما. نعرف أن الخطر يهدد الإنسان حين يباغته شعبان فيخشى على نفسه من أن يمسه اذى.. أما الشعبان هنا فقد باغتهما فأوقف الرحلة، وأوقف بمجيئه (الزمان)!.. يهرب الصغيران من زوجة أب قاسية، ويتوقان الى حضن الأم الدافئ. انها رحلة الآلام التي يدفعها الصغار بسبب خلافات الآباء والأمهات.

وتنطلق صرخة حادة ضد واقع مهين في (الشارع القذر)، حيث العفن والخراب والدود والحشرات والجراثيم. كل شيء قذر وملوث. وفيه القتل والسرقة والرشوة، كل شيء آل الى الحضيض. وتغرق الكاتبة في أوصافها وتشبيهاتها، مستعينة بذخيرتها التي تتقن تصوير الهدف بها، من عالم الطير والحيوان، وعلى رأسها الدود.. «دود يتحرك، يدب ديبيا، يتجمع... يتصومع ليمتص مؤق العينين».. وهي البداية لقصة (الجثة والشارع القذر) الفزعة المقلقة لمن يقرأها. في هذا الشارع «تتضاجع القطط في شراسة».. و «طنين الذباب» و «الأنهار أسنة تتناسل فيها الجراثيم»، وتنتشر الجرذان، والمومس تكشر عن أنيابها كافى هدها الحر».. ومرة أخرى «الدود يتحرك، أسكرته التخمّة، يتضاجع وينخر كالسرطان...» و «الدود يضل في متاهات البطن» و «يقبل النهار وتغرد العصافير في سماء الله تردد أنشودة احتضار ممتد»... ومرة ثالثة تأتي حكاية الدود.. «يتقيأ الانسان الدود» «أين وشوشة الحشرات وأنينها ؟» و«في الشارع القذر يظل الانسان ينش الذباب... ينش الذباب... ينش الذباب ليجتاز محيط الصمت». الذباب يتحول أو يتبدل الى

ذئاب، يضايق الذباب الوجه حين يحط عليه، أما الذئاب فتفترس البراءة وتغتالها، مثل هذا التبديل في قصة (أنا وأخي والحصار)، حيث حدثتنا عن «الثعبان الزمان» و «الزمان والثعبان» فخلطت بين الصفة والموصوف، بادلتهما، الصفة مكان الموصوف والموصوف مكان الصفة. وبمعنى آخر فالثعبان هو الزمان، والزمان هو الثعبان. والتبديل هنا يعني انعدام الفرق بين ذبابة تحط على وجه، وذئب يفتال البراءة والصمت. ويزحف عامل البناء على بطنه «كالثعبان». وتحدث عن «صانعي الخبز الملوث بالخفافيش»... معبرة بصورة مقززة منفرة بعد أن فاض الكيل. ولا حيلة للكاتب إلا أن يؤذي مشاعر قارئه ليستغفره، فيحرك سكونه وخموله ولا مبالاته. فالأرض كما تقول ريم العيساوي تغيرت صورتها، وملئت العقول بالأتربة وأصاب العالم هوسا، والكون يشكو الموتى من بناء السرادق وصانعي الخبز الملوث، و «من ناصبي الأمير إلاها ومن يائسي العهود ومن ناشري الدمار ومن الذي راى الزمان والانسان». انه ألم غائر يحرك جلعود الصخر، فكيف به لا يحرك قلب انسان؟! لهذا كانت صرخة الاحتجاج حادة ومؤلمة.. فهل من منصت ومجيب؟! هل من مصلح يبيت الأمن ويعيد الأمان؟! <http://Archivebeta.Sakhril.com>

تبسط الكاتبة أفكارها في قصة (جزيرة النساء) بأن التجرد من العاطفة مستحيل وضد فطرة الانسان.. ولم تعمق الفكرة، وانما بسطتها وسطحتها. هل نسمي هذا العمل (مقالا في قصة)؟ ويشدها الهم الوطني فتكتب قصة (دم وفسفاط)، منددة بمآسي (العدو) المغير على القرية بطائراته. وتقتصر هنا على رسم الصورة لفكرة جاهزة، حاضرة في ذهنها. نجد الهم الوطني أيضا في قصة (عندما تكبرين يا بنيتي)، وهي عن النضال التونسي أبان حصول تونس على استقلالها، والقصة من صور نضال الثوار. كما أنها مشغولة بالهم الاجتماعي، فتطلعنا على (جدار الصمت)، الذي أخفى سلوكا شاذا للجارة المتلصصة. وفي قصة (الشك)، تصور لحظة حلم عاشها الزوج، ظن فيها أن زوجته تخونه، ويتبدد الحلم عندما تفيقه زوجته الوفية صباحا!. وتتجسد مشاكل الزواج - أيضا - في قصة (زواج لم يتحقق) وهي قصة عادية تدخل القدر في رسم نهايتها، أما (المرأة الغريبة) فهي

زوج الأب المسن، الشابة.. تنشأ بينها وبين ابنة زوجها صداقة. وتتناول قصتا (المدين) و (الحذاء) هم الدين سواء لكاتب تتراكم ديونه، أو أرملة تلجأ الى آلة الحياكة وتضطر الى بيع حذاؤها. وتعيش ريم العيساوي جوا رومانسيا، فتعبر بخيالها في قصص عديدة عن لحظة الحلم، فتكتب قصتين : واحدة عن شاعر يناجي امرأة (وليل عينيك أجمل)، والثانية (الشمعدان) قصة خيالية تحاكي حواديث ألف ليلة وليلة، لكن الفكرة غريبة عن واقعنا، عن امرأة وحيدة تقفني شمعدانا أثريا تسكنه روح (كونت) من بلاد الافرنج. وتسترسل ريم في رسم صورة ضبابية من صنع خيالها المجنح. وفي قصة (انها غلطة) تستدعي الشرطة مدرسا دون علم بسبب الاستدعاء، ويتبين أن هناك خطأ في الاسم. وقد عولجت الفكرة في قصة (الاتهام المجهول) (1) لصاحب هذه السطور. ولعل توارد الأفكار جائز طالما اختلفت طريقة المعالجة والصياغة القصصية.

ونحن أمام كاتبة وأعدة يرجى منها الكثير، بأسلوبها الرشيق ونزعتها الرومانسية، الى جانب انصاتها للبسطاء وانحيازها لهم، مشاركة آياهم آلامهم وآمالهم، وأيضا أحلامهم. ريم العيساوي كاتبة تتجلى بمومية العصر، ولا تنسلخ عن دنيا البسطاء، لأنها واحدة منهم، نشأت بينهم وتفاخر بأنها من القرية البسيطة. مع نزعة ايمانية تتجلى في تضاعيف قصصها. ولعل القرية التونسية الصغيرة التي ولدت فيها ريم (أم العرائس)، والمدينة التي انتقلت اليها بعد وفاة والدها (حمام الأنف)، وعيشتها مع بسطاء القوم، هذه البيئة فجرت ينابيع الالهام، فصاغت قصصا تؤصل القيم وتؤسس دعائم المبادئ والأخلاق. ولم تكن نشأتها في تلك البيئة هي وحدها التي أطرت شخصيتها القصصية، وانما كان لوظيفتها التعليمية - مدرسة ثانوية سنوات طويلا ممتدة منذ عام 1971 - الأثر البارز في تأطير هذه الشخصية.

حسني سيد لبيب

(1) مجلة (الفيصل) السعودية - العدد 62 - شعبان 1402 هـ (يونيو 1982)

«... لَمْ يُطْبِع النَّخْلُ عَلَى الصَّنْتِ
أُخْرَسَتْهُ غُصَّةُ الْمَوْتِ
حِينَما شُرِدُّ مِنْ وَأَحَاتِهِ
وَأَصْطَفُ فِي أَرْضِيفَةِ الدُّعْرِ ،
» النَّخْلُ يَمُوتُ واقفا ،
مجموعة من الأقاصيص للقصاص
الشَّابَّ إبراهيم درغوشي الذي ولد
بقرية المحاسن من بلاد الجريد
بالجنوب التونسي.

... بل يموت
النَّخْلُ يمشي !

تضم هذه المجموعة في طياتها 19 أقصوصة، نشر جلها في
الصحف والمجلات التونسية فيما بين سنتي : 1987-1988.

هذه المجموعة خالية من الصور باستثناء صورة الغلاف التي
تمثل رسما لنخلة ميتة معقدة البطن ملتوية مقهورة. وهذه
الصورة تضيف بعدا آخر للعنوان ... فالنَّخْلُ يموت واقفا وهو
معقد دمرته الظروف وغيّرت صفاءه ونقاء طويته.

» النَّخْلُ يموت واقفا... : عنوان مثير.. رمزي وواقعي في
أن.. النَّخْلُ يموت واقفا : حقيقة وواقع لأنَّ النخلة قد تمرض
و«تسرُد».. قلبها ويتساقط جريدها وهي صورة محزنة لمن عاش
النَّخْلَ وشاركه طفولته وعمره.

» ونحن في قرينتنا نعشق النَّخْلَ ونعاشره من المهد إلى
اللحد. تلك الشجرة الشامخة المتعالية على غيرنا تعطينا نحن كل
شيء : ثمرها وبلحها وجريدها وسعفها وخاصة جذوعها التي
نستعملها لتسقيف المنازل (1) طبيعي لمن يعشق النَّخْلَ أن
يحزن لموته..

ولكن معجزة هذا النخل أن يبقى منتصب القامة قاهرا
للرياح والعواصف..

نعم يموت النخل واقفا.. وكذلك العامل والمناضل والفنان..
وكذلك مات بلقاسم : «عندما انفجر الديناميت داخل الجبل
تساقط الصخر في كل مكان... تهشم رأس بلقاسم. استند على
جدار النفق وظل واقفا وكما يعضّ الجمل على الخزامى عضاً على
شفته حتى أدماها ومات واقفا كما تموت النخلة» (2)

يموت النخل واقفا.. ولكنه يبقى شامخا مهيبا.. توقره
النفوس الكريمة وتخافه كل النفوس المريضة وترهبه رغم أنه
تيبس وتحجرت شرايينه.. وإنه لمحزن يا ولدي أن يموت النخل
واقفا أليس كذلك .. (3)

يموت النخل واقفا وهو في قمة العطاء داخل المنجم مترنما
بالمثل العليا.. لاعنا ظروف الفقر..

أه إن العامل الكدّاح في المنجم يحيا
دون أن يعطي حسابا للحياة
منزلي كوخ صغير
بيدي شيبته
ولقد أحببتك

وهو لي أجمل من قصر أمير
يقطع العمر على كرسيه
جالسا .. والعمر يا صحتي قصير
منزلي كوخ حقير
وخلصي أجرة ظلت حقيرة
وأنا أقسمها بين طعام ولباس وشراب
وإذا أجلت دفعا لديوني
يطرق الخباز ..
والخضار ...
والفحام بابي
بوعيد ..

وبتهديد بأن لا يطعموني ..
قبل أن يستخلصوا كل ديوني (4).

لغة القصّي :

أخلص من هذا لأقول إنّ ميزة هامة من ميزات إبراهيم درغوثي القصّاص أنّه يكتب بلغة سهلة.. خالية من التكلّف والبحث عن الصنعة المعقّدة اللّغة. عند درغوثي نقل لمشاعر إنسان محروم ونظرة إنسان مغلوب ودمعة في جفن حائر وابتسامة إصرار وتحرّد وشموخ.

لقد أكتفى بوصف الأحداث وصفا دقيقا مشابها للظروف التي وقعت فيها، فتحسّ أنّك تعيشها كما لو أنّها حدثت فعلا بالشكل الذي تقرأه.

لقد ابتعد الكاتب عن حوشي الكلام ومعتاصه ليهتم بلبّ الموضوع وجوهره وهو ما يعاني منه الانسان التونسي في هذا القرن وما يفسّ به من أوجاع وعقبات ومصاعب. اهتمّ بتعب الأرض الذي «لا تعرفه الأيادي الناعمة».

«لو استملعتم أن تنصتوا لصوت الأرض لحظة واتحدثتم بها لفهت معنى أن ترفض البهائم شرب الماء.
معنى أن يمتنع الغناء
لفهت ماذا تقول الأرض؟» (5)

إنّ اللّغة عند درغوثي نقل لأوجاع المحرومين والمعذّبين من أجل الحياة الأفضل.. لذلك فإنّه لم يسع إلى تحريك لجامها بعصبية ويلكزها بمهماز سيبويه والأخفش وابن عقيل ومن جاء بعدهم وإنّما وكزها بعذاب الصّحراء الممتدّة من الأفق إلى الأفق وبرجال : «يشرب الذباب الأخضر من مآقيهم ويغطّي الرّمْل الذي تذروه الرّياح صدورهم وأرجلهم وجزءا من وجوههم» (6). بعد أن كانوا «يحملون بالخيرات السبعة : شاي سيلان وأكياس أرز وعلب الزّيت والطماطم والجبنّة البيضاء وقمصان النوم الحمراء والوردية التي تحلم بها النّساء والأقمشة ذات الألوان الزاهية» (7).

وإنّك باقتربك من هذا الواقع وأندماجك فيه لن تستنكر اللّغة العاميّة التي تتسرّب على السنة شخصيات القصّة مثل : (أ) «أوصيتها عليها» (8). «وباسوها» (9). ثمّ صار نحو باب

الجبانة» (10). «تكوّموا فوق بعضهم» (11). «لماذا التّعب وتكسير الدّماغ مع الحريم» (12). «أجهزة الألكترونيك» (13). «ضبطته مع إحداهنّ ففرّجت عليه الخلق» (14).

بل لن تستنكر حتّى الحيوان الذي ينطق متأسّفاً على صاحبه الذي تنكر لأهله وأحبابه وهاجر إلى فرنسا وراء السّانحات ثمّ عاد ميتاً لقد قال جملة للرّجال الذين حملوا نعشه : «لقد حدّرتك قبل السّفر. قلت له : حاذر يا مبروك. الكلاب المسعورة لا ترحم أصحابها فما بالك بالغريب» (15).

ولا بدّ من أن نلاحظ أن هذه المجموعة القصصية قد امتازت بسلامة التعابير والتراكيب.. وإن وجدت بعض الأخطاء فهي قليلة نسبياً ولست متقصياً هذه الأخطاء وإنّما ساكتفي بذكر مثالين على سبيل الذكر :

- «وصرت كلّما اقتربت من ذبابة أو حشرة أخرى إلّا صرّبت الباب برجلي» (16).

والصواب : كلّما اقتربت أضرب الباب (بحذف : إلّا)

- «قال أنّه...» والصواب أنْ يُعَدّ القول تكثير الهمزة (تكرّر هذا الخطأ عدّة مرات وفي مواقع مختلفة) <http://A>

الثقافة الواسعة :

هذه المجموعة تنمّ عن عمل شاق لا ينهض به إلّا من كانت له امكانات ثقافية وفكرية وراوئية غير عادية. وإنّ القارئ ليجد تقاطعا وتناصاً مع نخبة من المفكرين الكبار عند مطالعته لهذه المجموعة ولا ريب إلّا ترّسم في ذهنك مثلاً صورة ناظم حكمت حين تقرأ قول الكاتب : «كانت الشّمس تنزل على رؤوسهم ثقيلة كالرّصاص المذاب» (17).

صورة ناظم حكمت يؤذن في قومه :

الهواء ثقيل كالرصاص.

أصرخ .. أصرخ .. أصرخ

تعالوا سريعاً

فإنّي أستضيفكم لتذويب الرّصاص... (18).

أما الإشارات التي تبين صراحة اطلاع الكاتب فنذكر منها
تحدثه عن أبي زيد الهلالي في قصة «قريتي جميلة يا صاحبي».

- اعتماده في قصة «الكلاب» على مثل : «جوع كلبك
يتبعك» وحكاية هذا المثل الموجود بكتاب قصص العرب، المجلد
الثاني ص 110 الطبعة الرابعة، المكتبة العصرية - صيدا.

وعلى الجملة فيمكن ضبط مصادر ثقافة إبراهيم درغوثي في:

1 - المجتمع : لقد أحب الكاتب مجتمعه إلى حد الهوس..
وعشق العمال والبسطاء وأخذ منهم الكثير.. حتى تلك الأشياء
الصغيرة العادية.. وكان حائقا على أمر أساسي هو تلك العلاقة
الخاطئة بين الأغنياء والفقراء.

2 - المصادر الفكرية.

3 - أصدقاء العالم عتاً.

4 - نماذج اجتماعية.

الشعر

ترق كتب إبراهيم درغوثي القصصية لتصبح قصائد. ففي
قصة : «شمس فوق كف عزيز» يصف الكاتب أمة المجنونة
فيقول :

من عيونها يترقرق نبع ماء صاف في صحرائنا القاحلة
من جبينها تشرق الشمس
فوق صدرها الناضر ترتع الغزلان
ومن شعرها المجنون يغزل الليل شباك الحب
كانت مهرة للفارس الجريح
غيمة للحقل العطشان.
نسمة في الصيف الملهب
كانت ربيع الدنيا كلها (19)

وفي قصة «يوم في الجحيم» نجد مقطعا شعريا جيدا لشاعر
يطلب الاستسقاء من غمامة حبل بالمطر.

أما التعابير المجازية والصور الشعرية فهي كثيرة نذكر مثلا حديثا عن القمر :

«ليلتها، لم يكن القمر قد أطلّ بلحيته الفضية من وراء الجبل» (20) هذا النفس الشعري طبع من المؤلف.. فقد بدأ مسيرته الفنية شاعرا وكتب لفرقة أولاد المناجم الموسيقية.

واقعية :

وأنت تقرأ قصص إبراهيم درغوثي تؤمن بأن نقله للأحداث ليس نقلا مجانياً فالكتابة عنده استفزاز ورفض يقتضي التحرر من كوابيس الظلم وجحيم الجور ويقتضي أيضا أن يكون لنا ما نتوكلنا عليه لإبلاغ ما نريد.

إن إبراهيم درغوثي من خلال هذه المجموعة واقعي النزعة ممجد للإنسان المكافح من أجل الغد المشرق... لقد خطّ لنا حكايات عن أناس نعرفهم جميعا لأنهم «نحن»... في لغتنا اليومية وحياتنا الدائبة وحلوّنا الجاف وراء لقمة العيش.. إنهم نحن.. المتكوّمون على جمر رمال الصحاري العالِمون بالمال وراء الحدود وبمواطن الشغل إنهم نحن وظلال الفرحة مازالت باهتة فوق شفاهنّا.. إنهم نحن الذين نعاني من الحضارة والحضارة أمنا الكسولة التي لم تعد قادرة حتّى على طبخ الطعام ! نحن الذين نترنّع في الشوارع الصغيرة الملانة حفرا وبالوعات ثم لا نملك إلا أن نحس بدوار شديد باحثين عن شبّاك الفنّ الذي سيحمينا من العواصف والأنواء.. ويحمينا من أن نموت واقفين.. أو أن نموت نمشي..

فتحي شبيل

الهوامش :

- - محمد ميلاد : «قصائد الظلم» ص 22.
- (1) من أقصوصة : «حكايات القلب الجريح» ص 24.
- (2) النخل يموت واقفا ص 74.
- (3) المصدر نفسه ص 74.
- (4) محمد عمّار شعابنية «ديوان طعم العرق» ص 23-24. الدار التونسية للنشر 1985.
- (5) محمد بن صالح : شاعر تونسي معاصر. صاحب ديوان : «المواسم» وكتاب «مختارات شعرية».
- (6) إبراهيم درغوثي : «يوم الجحيم» ص 3.
- (7) المصدر نفسه ص 6.
- (8-15) المصدر نفسه ص 4, 5, 5, 8, 89, 91, 91, 35.
- (16) المصدر نفسه ص 76.
- (17) المصدر نفسه ص 7.
- (18) ناظم حكمت شاعر ثوري.
- (19) إبراهيم درغوثي : شمس فوق كف مؤبر ص 56-57.
- (20) ص 44.

الفهرس

العدد 97 (جويلية - سبتمبر) 1992
المجلد الرابع والعشرون

تصدير قصص 3

* قصص

- رجل من جلاسكو تعريب/محمد بلحاج صالح 5
ستاك فريت محمود بلعيد 18
هكذا الرجال إبراهيم التوكالي 23
دخان <http://www.kkbrt.com> الناشر التومي 26
فصل من رواية تعريب/أبو بكر العيادي 34
حكاية الجمل علي مصطفى المصراتي 51

** دراسات

أسس التجربة القصصية

- عند الطاهر علي عمران محمد الهادي بن صالح 80
لماذا تموت العصافير حسني السيد لبيب 87
بل يموت النخل يمشي فتحي شبيل 97